هنري بنديه

رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين

سنة ١٨٨٥

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي راپەرين – اربيل– كوردستان العراق

ت: ٢٢٣٢٠٢١ ص.ب: رقم ١

هنري بنديه

رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين

سنة ١٨٨٥

ترجمة وتعليقات

د. يوسف حبي

اسم الكتاب: رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين
تأليف: هنري بنديه
ترجمة: د. يوسف حبي
من منشورات ئاراس رقم: ٧٦
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: نسار عبدالله
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الاولى: اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠١/٣١١

الرحالة هنري بنديه

رفيق الرحالة: إميل هاملن

مقدمة المترجم

العالم كبير، ويصعب على المرء أن يطّلع على سائر البلدان والمناطق، وقد كان الأمر أشدّ صعوبة في عهود لم تعرف وسائل مواصلات سريعة ومريحة كما هي عليه في أيامنا، لذا كان الإقدام على سفر طويل وبعيد يعني ركوب المشقّات والتعرّض للمشاكل والأخطار، فهو من الندرة بمكان، بل مغامرة حقيقية.

وقد يزودّنا الرحالة المغامرون بمعلومات قلما نعرف عنها الكثير من مصادر أخرى، لذا كانت الرحلات مفيدة، إضافة الى ما فيها من متعة وطرائف تزداد وتقل بحسب كفاءة الرحالة من عدة نواح.

ورحّالتنا هنري بنديه، فرنسي مغامر، أحب زيارة منطقة كُردستان فإبتدأ بالقسطنطينية (أسطنبول)، وقصد تفليس، وجفله، وتبريز، وأورمية، ووان، وجوليرگ، والعمادية، ووصل الموصل، ثم زار بغداد، وبعقوبة، وخانقين، وكرمنشاه، فطهران، وگيلان، والقوقاز، وقفل عائداً الى پاريس.

لقد كانت رحلة بنديه سنة ١٨٨٥، وهذه من الأعوام المهمة في تاريخ المنطقة، وبوسع المعلومات التي يقدّمها، هو وغيره من رحالة، أن تكشف عن أوضاع ماتزال غامضة تاريخيا، وهو رغم أسلوبه الجاف، يطلعنا على أحوال المملكتين العثمانية والفارسية. ويعرف المتتبعون أن الفترة من العهود المغمورة التي مازالت بحاجة الى المزيد من الكشوف.

إستغرقت رحلة هنري بنديه من الخامس عشر من شهر آب (أوغسطس) ١٨٨٥ وحتى السابع عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة عينها. وبما أننا إكتفينا بترجمة القسم الخاص بالعراق، فينبغي القول بأن رحالتنا قطع الأقسام التي زارها من العراق خلال شهر، من ٤ تشرين الأول (أكتوبر) وحتى ٢ تشرين الثاني (نوڤمبر)، متوقّفا في الموصل وبغداد، ومارّاً بالمناطق الأخرى سراعا.

لم يكن بنديه وحده، بل كان يرافقه فرنسي آخر إسمه أميل هاملن، كما إحتاج الى أشخاص بصفة مترجمين، كان أولهم جيروم الإيطالي، والثاني سيمون (شمعون)،

والثالث بطرس، والرابع نانو، كما كان له طباخ وفّي إسمه يوفان، بالإضافة الى أدلاء القوافل وأصحاب الكلك والجذافين والشرطة والجندرمة والجنود.

اسم الرحالة الفرنسي Henry Binder وعنوان الرحلة في الأصل: Au Kurdistan, En Mésopotamie et en Perse, Maison Quontin, Paris 1887 أي: الى كُردستان، في (بلاد) مابين النهرين وفارس)، دار النشر كونتان، نشرها في پاريس سنة ١٨٨٧، وزيّنها بمائتي رسم من عمل وطباعة كنساك Quinsac عن صور فوتوغرافية وتخطيطات قام بها الرحّالة ورفيقه، وأرفقها بخارطة ذات أربعة ألوان للحدود التركية والفارسية، وقد تصدّرت الرحلة صورة للرحالة بنديه من عمل رينيه جاكيه سنة ١٨٨٧ والرحلة مقدّمة الى الجنرال ف. بيرييه كومندور وسام الشرف، عضو المعهد والمكتب للمسافات، مدير المكتب الجغرافي في وزارة الحرب، نائب رئيس الجمعية الجغرافية، فقد كانت الرحلة بتوجيه من وزارة التربية الفرنسية، ولمهمة جغرافية آثارية. وقد إكتسبت رحلة بنديه أهمية خاصة بفضل الصور والرسوم التي كان يسحبها وللفنان أن يخرجها بشكل جميل وواضح، فكان لنا تراث توثيقي بالغ الأهمية، بعكس إنطباعات وملاحظات غير دقيقة ومحقّة سجّلت هنا وهناك.

جاء في مقدمة الرحالة ما ترجمته:

«إذ كنت أخطط لرحلة الى كُردستان، في بلاد مابين النهرين وفارس، وكنت قد وصلت توا من سفر طويل في جزر السندويج، وأنا في پاريس، صيفا، في وقت يهرب منها كل الناس...»، إذا به يقع على ملاحظة يسجلها السيد ركلس، تحفزه على المغامرة، فيبدأ رحلته الى حوض الزاب الأعلى حيث يعيش الكُرد سكان الجبال، والآثوريون (النساطرة)، فكان – كما يؤكد هو نفسه– أول أوروپي جازف ونجح، بعد أن كان قد قام بالمجازفة السيد شولز، وخرّ صريعاً هو ورفاقه.

قبل مغادرته پاريس، يزور بنديه وزير فارس في پاريس الجنرال نزار آغا، ثم يجهز أمور الرحلة بسرعة، فهو متعوّد على الأسفار. أمتعته؟ حقيبة جلدية كبيرة، صندوق صغير، سريران صالحان للنوم في العراء من نوع أسرّة المخيّمات له ولهاملن، رزمتان من الأغطية والشراشف، وآلة تصوير. بينما يرسل عن طريق مرسيليا ما هو ضروري للتصوير من صفائح ومحاليل إضافة الى عتاد السلاح وعلب مأكولات، وقد كان من

المفروض أن يتسلمها في باتوم، غير أنها فقدت، كما سرقت منه في مكوس (گمارك) بغداد مجاميع جماجم وقطع وأغراض نفيسة حصل عليها في منطقة الزاب الأعلى وأماكن أخرى، وكان قد خصصها للمتاحف الفرنسية.

ورحالتنا أوروپي فرنسي، متعال، متغطرس، مع شيء من التعصب والتحامل على الشرق وأهاليه بشكل عام، وعلى الأتراك بشكل خاص. تهمّه بعض المظاهر وآداب المائدة بشكل مفرط، لكنه دقيق الملاحظة في أمور لايعنى بها عادة رحالون غيره، ويتحاشى تكرار ما سبقه إليه آخرون، لذا كانت رحلته مفيدة رغم نواقصها، إذ إنه يبتعد عن الموضوعية والعلمية أحياناً، على الرغم من محاولاته توثيق كلامه بالرجوع الى مصادر ومعلومات مستقاة من هنا وهناك.

لذا يطيب لي، بعد مرور أكثر من قرن على رحلة هنري بنديه الى بلادنا، أن أقدّم يومياته وإنطباعاته الى قراء العربية وأهالي المنطقة. وتوخيا للفائدة المرجوة قمت بالتعليق على أمور كثيرة، وشرحت بعض الأمور، وقد أشرت الى هوامش الرحالة الأصلية بوضع كلمة (الرحالة) بين قوسين، بينما تركت تعاليقي وملاحظاتي بدون إشارة خاصة.

ولما كنت قد إقتصرت على القسم الذي يخص العراق، كان لابدّ من التنويه بأن ما ترجمته بلغ ١٦٦ صفحة من صفحات الكتاب في الأصل الفرنسي، وبالضبط من ص١٦٧ حتى ص٣٣٣، أضفت إليها مقتطفات مستمدة من عدة مواضع من الرحلة، إتماماً للفائدة.

ولإعطاء فكرة كاملة عن الرحلة، قمت بترجمة وإثبات فقرات الفصول كلها، إذ أن عدد صفحات الكتاب هو ٤٤٨ ص، وأدرجت ثبت المواد في صدر الكتاب، بعد هذه المقدمة، بينما إكتفيت في آخر الكتاب بفهرس للمواد المترجمة.

آمل أن يفيد هذا العمل في الكشف عن تاريخ بلادنا وإنساننا بشكل أوفى لإيضاح واقعنا ومستقبلنا.

ي. ح.

محتوى مواد رحلة هنري بنديه

ندرج هنا المحتوى التفصيلي لرحلة بنديه بشكلها الكامل، مشيرين الى الفصول والفقرات التي قمنا بترجمتها الى العربية، ومحيلين القاريء في ذكر هذه الأخيرة الى فهرس الكتاب.

مقدمة

الفصل الأول: من قسطنطينية الى تبليس (تفليس)

السفر من القسطنطينية. القارب النمساوي. البحر الأسود. طرابزون. الوصول الى باتوم. المكوس (الكمارك) الروسية. المسيو دي لاشوم. تفليس. المسيو ماير. إعتماد ترجمان. تجهيزات أخيرة. الرحيل عن تبليس.

الفصل الثاني: من تفليس الى جفله

الرحيل عن تفليس. الوصول الى أكستافا. البريد الروسي؛ التروبكا (الجياد الثلاثة). المراحل الأولى، خصومات صعبة. ألقى حقيبتي. بحيرة كوكتجا، دير سيوانكا. جبل أرارات. أريفان. سُرقنا مرة أخرى. قصر سردارس. أتشميازين، أرمينية. الديانة الأرمنية. دير أتشميازين، المكتبة. اللغة والكتابة الأرمنية. الرحيل عن أريفان.

الفصل الثالث: من جفلة الى تبريز- تبريز

البريد الفارسي. السفر بالجياد (الچپر) والسفر بالقافلة (الكروان) - الكران والفرستك - الإلتقاء بقافلة. أخطاء في تقدير المسافات. إيران. دبي. صاحب جياد السفر (جبر خاني). التلغراف الهندو-أوروپي. مارند. كانو. سفيان. تبريز. المسيو برنيه. القنصلية الفرنسية. الأرمن المختياريون. المسيو مالبرتوي. السطوح. أعياد محرّم. الشيعة والسنّة والفرق الإسلامية، البابية، الكبرية. شارات خضراء. الجامع الأزرق. زيارة الى سيد المخ. جنود قصّابون. إعتماد طباخ. أخطاء السفر. إزدواجية الحكومة التركية. المسيو برنيه يحاول إقناعنا بالعدول عن السفر.

الفصل الرابع: من تبريز الى أورمية - أورمية

السفر من تبريز. بحيرة أورمية. جبرخان مغمور. ملاحظات بشأن البحيرة: كثافتها، جزرها، الملاحة فيها. ندرة العيون الصالحة للشرب. سراي الما. ليلة تحت أعمدة محطّة. وادي سلماس. الجرجاي. ديلمان. الخان من الداخل. مسيرة أيسي سو. كيئافيلان. سهول ملح على ضفاف البحيرة. التلغراف المحلي. الوصول الى أورمية. الآباء اللعازريون. المسيو رنار. المدارس والمنشآت الدينية. الشرطة في الشرق. حملة عسكرية. تنظيم قافلتنا. قلة فوائد الحماية. زيارة الى الوالي. البيزرة. خبز الرقاق (لافاش). تخوّفات الحكومة من الملالي. مراغا، الكهنة المتزوجون. النساطرة والكلدان. مار شمعون. الرحيل الى أورمية.

الفصل الخامس: من أورمية الى وان

السفر من أورمية. تشكيلة قافلتنا. قرية نازي. وصف قرويين. كندرفان. تائهون. برديك قرية كردية. أواسن قرية جيورجية. طبيباً رغما عني. مضيق برديك. حصون. كلمة عن الكُرد. فوق القمة الحدود التركية الفارسية. ليلة لدى الكُرد. شجرة مقدسة. الزاب الأعلى. سهل باشكاله. إختفاء المياه. كلائي كيراني. مشاريع زراعية. باشكاله. الپاشا. التلغراف والتلغرافي. الأب ريتوري. طريق العربات بين باشكاله ووان. زيارة صحية. سوء نية أصحاب البغال. عائلة في سفر. تضميد البغال. مشهد الجبال ومنظرها. محمودية. القلعة. وادي خوشاب جاي. وان.

الفصل السادس: من أورمية الى جوليرگ

الوصول الى وان. الإقامة لدى الآباء الدومنيكيين. زيارة الى قنصل روسيا. تنقيبات في طوبره كالح. تحفظات الوالي نحونا. وان: البساتين، المدينة، صناعتها. السكان والجالية الأوروپية. صخرة وان، الكتابات. تأسيس وان. سمير أميس. عشاء لدى قنصل روسيا. صعوبة في سحب مناظر وصور. زيارة طوبره كالح والأطلال. سيارة المسيو كولباكين، رجل الأعمال التركي. بابا ماجان. بحيرة وان، أسماكها، مدودها. الجزر. إختامار. أرمينية وكُردستان. الإستغناء عن جيروم (الترجمان). عشاء لدى قنصل إنكلتره. الكُرد والسلب. إهمال الحكومة ردعهم. الحذر من الأجانب ومشاكساتهم. سيمون (شمعون) ترجماننا الجديد. السيدات الأمريكيات، إبنتهن. سفرة الى دير فاراش، المكتبة. الرحيل عن وان.

الفصل السابع: من وان الى الموصل

القسم الأول: من وان الى جولميرگ

قرى كُردستان. واد أرمني. أرميرو. بيجونكت. منابع دجلة، شميرام سو. أوكوتزفانك. جياد فارس وتركيا. توقف في السهل. صناعة اللباد. وسط الكُرد القراصنة. ضيافة أرمنية. حياة عائلة في قرية أرمنية في كُردستان. مهاجمون مرة أخرى ومتعرضون للنهب. العشر وأعمال زراعية، المحراث. أراض ملغومة. قوجانس. غابة متحجّرة. خيم الكُرد. جولميرگ.

القسم الثاني: من جولميرگ الى العمادية

من هنا تبدأ ترجمتنا للرحلة (أنظر الفهرس والمتن)

القسم الثالث: من العمادية الى الموصل

أنظر الترجمة بالنسبة للتفاصيل.

الفصل الثامن: الموصل – نينوى – خورسباد

أنظر الترجمة.

الفصل التاسع: من الموصل الى بغداد

أنظر الترجمة.

الفصل العاشر: بغداد

أنظر الترجمة.

الفصل الحادي عشر: من بغداد الى كرمنشاه

أنظر الترجمة.

الفصل الثاني عشر: من كرمنشاه الى طهران

الوصول الى كرمنشاه. الدكتور – الطبيب فوم. بيت فارسي. كرمنشاه، تاريخها. ساحة ميداني نو. عرض موسيقي عسكري يومي. ساعة شرقية. أغار حسن. حياة الفلاحين الكُرد وأخلاقهم. زيارة كهوف طاقتي بستان. قصر أيماديي. عشاء لدى

أغار حسن. الرحيل عن كرمنشاه. بيستون، الكتابات. سهنا. كينكوفر. ازاد باد. الوصول الى همدان، هجوم، جبرخاني. المسيو كارابيت. همدان، تاريخها. قبر أستير مردوخاى. قبر إبن سينا. الأسواق. ندافة وحلاجة القطن، أعياد بوريم. الرحيل عن همدان. خان ملاكرد. زيرى. ميريك. نوباران. رضا جاى. ساماميب. سافية. خاناباد. روبات كريم. الوصول الى طهران.

الفصل الثالث عشر: طهران

فندق بريفو. المسيو دي فوفيلليه. السفارة الفرنسية. الدكتور الطبيب تولوزان. سلام. نزلاء الفندق. السفارات. قوافل كُردستان. السوسمنلية، رقصاتهم. الطاعون والكوليرا. الأربعينيات. وليمة الشاه. الإدارة الداخلية. المدرسة الحربية. أبناء الشاه. الطريق الكبير في طهران الى ريشت، ومن قزوين الى تبريز. مصطفى الممالك. الأرك أو قصر الشاه. زيارة القصر. عرش الطواويس. التكية. مسارح فارس. تنزيهة الشاه. حمايته. الأسواق. التحصينات. الأطراف: طوقان، طبييه، أيشيرت آباد، قصر قاجار، تدجيريش. الرحيل عن طهران.

الفصل الرابع عشر: من طهران الى ريشت. أينزلي– گيلان

من طهران الى قزوين. قزوين. مازاياه. عنق خارازان. باجينار. الشاه. منجل. الزيتون. السفر الدائري. جسر منجل. رستم آباد. گيلان. البطائح. كودرم. الگيلانيون. ريشت. المسيو فلاسو. مناخ گيلان. دور القلزم. الشبه بين هذا البلد واليابان. السفر من ريشت. بيري بازار. مورد آب. أينزلي. الرحيل عن أينزلي.

الفصل الخامس عشر: باكو– تفليس– وادي القوقاز– پاريس

شركة القوقاز والمشتري. لينكوران. باكو، وآبار النفط. حج زاردشتي (كبير). تفليس. الطريق العسكري. من تفليس الى وادي القوقاز. العودة (الى پاريس).

من جوليرگ الى العمادية*

وادي وقرية جوليرگ. الإكرامية الفرنسية والإكرامية التركية (البقشيش). زيارة الوالي. الزي الكردي. جولة في القرية. السفر. قافلتنا (الكروان) وحماتنا. الزاب الكبير. عبور جسر. وادي تال. الحقول والزراعة في الجبال. قرى كردية: بيشرية، رابات. نهر (الأنتراد). قبور سريانية. توروب. جيسي وبيرج. بيلات–سو. أعمال فنية مهملة. دال. تحمس السكان. نصل الى الزاب الكبير. مخيّم على الضفاف. الجنينة. غابة كستناء وبلوط. المنّ. وادي (كلي) العمادية. بساتين العمادية.

تقع (جوليرگ) في عمق أخدود واسع[١]. يحيط بالمدينة جبل شاهق الى الجنوب الشرقي، بينما تحيط بها من الأطراف الأخرى، إنحدارات أكثر جمالا. تنساب المياه من الجبال في أربعة جداول، تلتقي في أثنين، حتى تبلغ الجنوب من الوادي، فتنساب بواسطة فتحة متعرجة لاخدود ضيقّ، مشقوق في الصخر، مشرف على الجبل. تنتشر في الوادي باقات أشجار مزهرة تتخللها بعض البيوت.

وفي الزاوية الجنوبية من الوادي، وعلى صخرة صلبة طولها ثلاثمائة متر وعرضها ثمانون أو مائة متر، تقع مدينة حقيقية، نصفها مهمل، مكونّة من حوالي مائة بيت. وقد كان ثمّة قلعة تهيمن على الصخرة، فيما مضى. ويقع اليوم، غير بعيد عنها، جامع، هو أشبه بحصن صغير منه الى مسجد، شبيه بما رأيناه في مدخل وديان (برديك) الضيقة.

فور وصولنا، سألناهم أن يدلونا على مسكن القائمقام[٢]. لم يكن في البيت، لكنني لقيت هناك ضابطا تحت أمرته عشرة رجال، فقلت له إنني سآتي لكي أزور الوالي غداً صباحاً، وإني أبحث الآن عمن بوسعه أن يضيفني. فقادني الى محلة يسكنها كُرد من الأرمن والسريان. تقع هذه المحلة خارج المدينة، وسط الحقول، على

* إنه القسم الثاني من الفصل السابع من الرحلة.

(١) تقع جوليرگ Djoulamerg الى الجنوب من بحيرة وان Van وجبالها ضمن سلسلة جبال طوروس في تركيا، وهي مركز أمّارة الحكارية.

(٢) يكتبه بنديه هكذا: Kaimagan.

جبل صغير يشغر وسط الوادي تقريباً. البيت الذي سنسكن فيه مبني بسقف مشترك ضمن مجموعة بيوت أخرى[٣]. ويتكوّن منزله من غرفة يتقدمّها مدخل، وبواسطة سلم ننزل الى البيت الواقع في الأسفل.

هذه الغرفة الصغيرة والواطئة قذرة، تعشش فيها كل أنواع الحشرات، ورغم ذلك حللنا فيها.

طباخ الرحلة: يوفان

وبينما كنا نجفف ثيابنا، كان يوفان[٤] يقوم بإعداد دجاجة مع قرنبيط ورز، وقد بدت رائحة الطعام لذيذة، فنحن منذ خمسة أيام لم نتناول لحماً طريّاً، وهذه هي الليلة الثانية عشرة ننام فيها بكامل ثيابنا على أسرّة مخيمات. السكان المحيطون بنا لطاف وطيبون، في الظاهر على الأقل[٥]. يأتي الحرس[٦] ليسألونا إكرامية (بقشيشا). لقد كانوا خدومين، لذا أعطيتهم إكرامية أعلى من المعتاد، لكنهم كالعادة لايرضون، بل يعيدون المبلغ قائلين: إنهم يفضلون عدم إستلام أي شيء. لقد تعودنا على طريقة مثل هذه. إنهم سيعودون بعد قليل لكي يطالبوا بالمبلغ. فهؤلاء الناس لم يتعودوا على أن يعامَلوا بسخاء، لأن الأتراك الذين يسافرون مقتّرون أكثر مما قد نتصور، لايدفعون أي شيء لهؤلاء الفقراء المساكين عدا

(٣) لنذكر أن المنازل في القرى الكردية هي ملاصقة لبعضها، يكسوها سقف مشترك هو بمثابة غطاء مصنوع من الطين (الرحالة).

(٤) يكتبه رحالتنا هكذا Yovan ونظنه تحريف (يونان) الإسم الشائع في مثل هذه الأوساط، وقد وردت صورته ص٧٨ من الرحلة، وهو خادم بنديه وهاملن وطباخهما إبان الرحلة.

(٥) يتحفظ بنديه في الرحلة كلها من سكان المنطقة وأهالي البلد، بل من الشرقيين بشكل عام، فيعكس هكذا صورة غربي متغطرس وأجنبي متعال، ويقدم إنطباعات مضحكة أحياناً.

(٦) يستعمل رحالتنا لفظة Zapatie للدلالة على الحرس والشرطة والجندرمة، وقد ترجمناها بهذه الكلمات، وسيشرح لنا بنديه نفسه الفرق بين هؤلاء وبين الجنود في الهامش ٢١٠.

ضربهم بالعصي. ورغم ذلك فهي عادة أفضل مما لدينا، لأنها ليست هذه الإكراميات التي نعطيها من حين الى آخر، إنما ضربات السياط والعصي تجعلنا أن نطاع ونحترم بشكل أفضل.

٣٠ أيلول (سبتمبر ١٨٨٥)

لقد سقطت الأمطار طوال الليل، وثارت عاصفة هوجاء، ولحسن حظنا يمنع سقفنا تسرّب الماء. يأتي سواس البغال لكي يعدّوا ما يلزم. أكلّف سيمون[٧] بالذهاب لرؤية فيما إذا كان في السوق بعض أصحاب الحيوانات ممن يستطيعون أن يوصلونا الى العمادية، فيعود دون أن يجد أحداً.

يصل الوالي مع رئيس الحرس، فنقدم له ككرسي لوحا فوقه بساط فرو. يقوم كأقرانه بإبداء العروض الأشد صرامة. إذ نقول له بأننا بحاجة الى جندرمة لمواصلة طريقنا، يجيبنا: «الفصيل كله (أعني عشرة خيالة وعشرين مشاة) تحت أمرتكم، وسنرافقكم نحن بأنفسنا، إذا ما طاب الأمر في أعينكم». عليه أن يرسل إلينا أيضاً أصحاب البغال الذين يعرفهم. يوفان يقدم الشاي، ثم ينصرف هؤلاء السادة. الطقس رديء، ونحن مشغولون في كوخنا بترتيب لوازم كثيرة، وتنظيم أمتعتنا وثيابنا. يحملون إليَّ أزياء وأقمشة كنت قد طلبتها بالأمس. أشتريت من قروي زيّ الأعياد[٨]. لكنني إذ أرسلتها الى فرنسا من بغداد، سرقت مع الأسف من قبل المكوس (الكمارك) التركية، ومعها ضاعت نفائس أخرى، كصندوق جماجم كنت قد رفعتها ليلا ببالغ الخطورة من مقبرة كردية وكنت قد خصصتها للمتحف الطبيعي (في باريس).

نستغلّ فرصة صفاء الجو لسحب مناظر أجزاء مختلفة من الوادي، ولكي أرسم،

(٧) يكتبه Simon ونظن إسمه الأصلي (شمعون)، ترجمان رحالتنا في هذه المرحلة من السفر بعد الإستغناء عن الإيطالي جيروم، وسيبقى مع بنديه ورفيقه حتى الموصل.

(٨) هذه أسماء الزي: جلفار = بنطلون. جابيك = كنزة مع أرادان. يلك = كنزة محفورة الأردان. جابكيين = كنزة مزخرفة. كياسارى = جاكيت قصيرة (سترة). قولو كياسارى = سترة من فرو الخروف. شاريك = حزام. كيولوس = قبعة من الفرو. الأبي = العرقجين أو القبعة الأولى. ازادى = القبعة الثانية (اللفة). بول = أحذية. ناشيك = أحذية من الصوف (كلاش) (الرحالة).

وأنا محاط بعشرين شخصاً يتلصصون على خطوطنا «الهيروغليفية»[٩]، منظراً لهذا الوادي الغريب.

بعد أن يعود يوفان آسفاً بأنه لم يلق خروفا، نخرج مع سيمون لزيارة القرية المكونة من شارع تحيط به بيوت صغيرة، قذرة ومنخفضة. نلقى مسجداً تالفا تماماً، وسوقا هو عبارة عن فناء مربع محاط بدكاكين صغيرة يقف في مقدمتها باعة فقراء.

زي نسائي

يستأنف المطر سقوطه، فنمضي لردّ الزيارة للوالي. يقوم الحرس بإستعراض السلاح لدى وصولنا، ويكرر القائمقام وعود الصباح، ثم يغدو الحديث مملاً. فننسحب بعد القهوة التي لابد منها، وندخل الى كوخنا[١٠].

يجيئون إليَّ سائلين بعض النصائح، فإن مريضاً يشكو في الباطن. يقول لي إذ أسأله أين ألمه، وهو يتطلع الى المترجم مستغربا: «وكيف لايعرف وهو طبيب؟»، فننفجر من الضحك. إذ لم يعد إلا القليل لكي أصبح طبيباً رغما عني، ولايكفيني ذلك، بل عليّ أن أشخّص المرض من النظرة وحدها.

بعد العشاء، نقوم بتقسيم الغرفة لكي نبدل ورق التصوير، ونهيء أمتعتنا، فإن البغال ستكون غداً صباحاً، الساعة السادسة، أمام بابنا. إننا ما نزال على الحمية

(٩) يقصد تخطيطات الرسوم التي كان يكمل بهما ما يسحبه من صور، وقد أزدانت بهما صفحات الرحلة.

(١٠) أي الدام، ويستعمل بنديه لفظة Cahute.

والنشاط، لم تنهكنا الأتعاب بعد، ونحن في قلب هذا الوادي البغيض الى القلائل من الأوروپيين الذين حاولوا الولوج إليه، ويهمّنا كثيرا أمر التعرف عليه. إننا منذهلون بجمال المناظر، وقد بدأت فلسفتنا بالتحقق بما فيه الكفاية رغم ضجر السفر والقناعة بأن الأتراك ثقيلو الظل بشكل يدعو الى اليأس.

١ تشرين الأول (أكتوبر)

كان أصحاب البغال حاضرين في الساعة السادسة. ويدلّ مظهرهم على انهم سوف يرضوننا. يأتوننا بسلّة عنب رائع. ولهم زي من أروع ما يمكن أن يتخيله المرء. إنه زي قبلي تماماً: قلنسوة رفيعة من الفرو الأبيض (كيولوس)، سترة صغيرة (قيصرية)، وبنطلون عريض المقاييس (سروال)[١١].

كم كان إستغرابنا بعد تلك الوعود التي أظهرها القائمقام، حين شاهدنا بدل الحماية، جنديين بسيطين، ومن دون بندقية، فكأنهما مستعطيان. قصدت الوالي فقيل لي بأنه مريض، فذهبت الى المخفر الذي يتخذ هناك مهمّة المعسكر، وذلك لكي أشكو الحال، غير إني لم أحصل سوى على الجواب التالي: «لو شاء الكُرد أن يمنعوا سيركم أو أن ينهبوكم، فلسنا نحن من نقوى على منعهم، لذا فمن غير المجدي أن نضحّي برجالنا». ألححت كثيراً، ولكنهم لم يضيفوا أي جندي آخر، إنما ألزموا أحد الشرطيين على حمل بندقيته، ولم يعطوا له عتاداً.

غادرنا المدينة وحمايتنا هذان الجنديان اللذان سيكونان بالأحرى كخادمين ذليلين، لا كحارسين. تركنا وادي جوليرگ من المعبر الجنوبي الغربي المحاط بالسواقي. ثمة طريق أشبه بدرج متعرج محفور في الصخر من قبل السجناء الكُرد أثر إنتفاضة لهم. تصعد البغال وتتهادى متعبة في هذا الممر الضيق. صراخ أصحاب البغال، وصوت سقوط المياه، وحوافر الحيوانات التي تنزلق وتتماسك، كلها أصوات تتقبلها، بل تضخّمها أصداء هذا الأخدود الضيق، فتفضي إنتعاشة لذيذة. نصل بدون ما حادث الى أسفل الصخرة، حيث نجد مجرى مياه، وندخل بعد دقائق وادي الزاب الكبير (الأعلى).

(١١) أسماء هذه الثياب هي: Kiolos, Kiassaré, tchalvar.

ليس النهر الآن سوى غدير أصفر، عرضه بضعة أمتار، ينساب وسط جبال عالية جداً. نجتازه عبر جسر راقص تماما، مكوّن من حصائر صفصاف وأغصان متشابكة. يجتازه أولاً أحد رجالنا وحده، ثم يجتازه إثنان، ثم بغل غير محملّ، وأخيراً بغل محملّ. لهؤلاء الرجال طريقة خاصة في الإمساك بالحيوانات أثناء إجتيازها الممرات الصعبة: فأحدهم يمسك بالرأس، والآخر بالذيل، بحيث يكون كلاهما مستعدين لسند الحمولة باليد الأخرى في حالة تأخذ الأرض التي يسند الحيوان رجله عليها بالإنهيار من جراء ثقل وزنه. نتبع طريق الماعز على ضفة الغدير اليسرى، ويتطلب الطريق مهارة من البغال لكي تكون ثابتة الأقدام، أمّا الجياد فلا تقوى على السير فيه. ضفاف الطريق مكسوة بالعوسج، وبكروم برّية تتسلق الصخور. نصادف أحياناً سراطين صغيرة شبيهة بالتي نلقى أعداداً كبيرة منها على شاطيء البحر. بعد ساعتين من مسيرة صعبة على هذه الضفاف المرتفعة، نتوقف عند منتصف إرتفاع الجبل، فوق موضع سهلي صغير يسمح لنا بإنزال حمول الحيوانات والقيام بإستراحة النهار. هاملن[١٢] يصيد بضعة حجلان، بينما أقوم أنا بحراسة الصناديق والأمتعة.

نستأنف طريقنا. وبعد أن نحاذي الغدير، نترك الزاب الكبير لكي ندخل في واد ينساب فيه مجرى مياه إسمه (تال). النباتات هنا كثيرة: الجوز، الدردار، وبعض أشجار قليلة الإرتفاع تنمو كجميزات على إمتداد الغدير.

نصادف عبر طريقنا قرى كردية. لايبدي لنا الأهالي حماسا. بل ينظرون إلينا نظرة لاترضي. ويرفضون تقديم الحليب والدجاج حين نهمّ بشراء ذلك. لقد قام هؤلاء الكُرد بإجراء أعمال بدائية حول قراهم، لكنها مجدية، لزراعة الأرض وإقامة حقول صغيرة وسط هذه الأرض القاسية، إذ ثمّة جدران حجارة تسند الأراضي الزراعية في المناطق المنخفضة من الحقول[١٣]، وحصلوا هكذا على سهول صالحة لزراعة الرز، والذرة والشعير، وبزر القنب، يصنعون من ذلك ضرباً من الخبز المسطح الرقيق يؤكل ناشفاً تقريباً[١٤] نجتاز قرية إسمها (بيسرات) ذات موقع ممتاز، على الضفة اليمنى من

(١٢) Emile Hamelin رفيق بنديه في رحلته، صورته ص٣ من الرحلة، وباسمه أيضاً يدوّن بنديه مذكراته ويوميات الرحلة، لذا يستعمل صيغة الجمع.

(١٣) أنظر الصورة.

(١٤) إنه الخبز المعروف بالرقاق أو الخبزات الرقاق. أنظر الهامش ٢٢٢.

الزاب الأعلى

حوض الزاب الأعلى

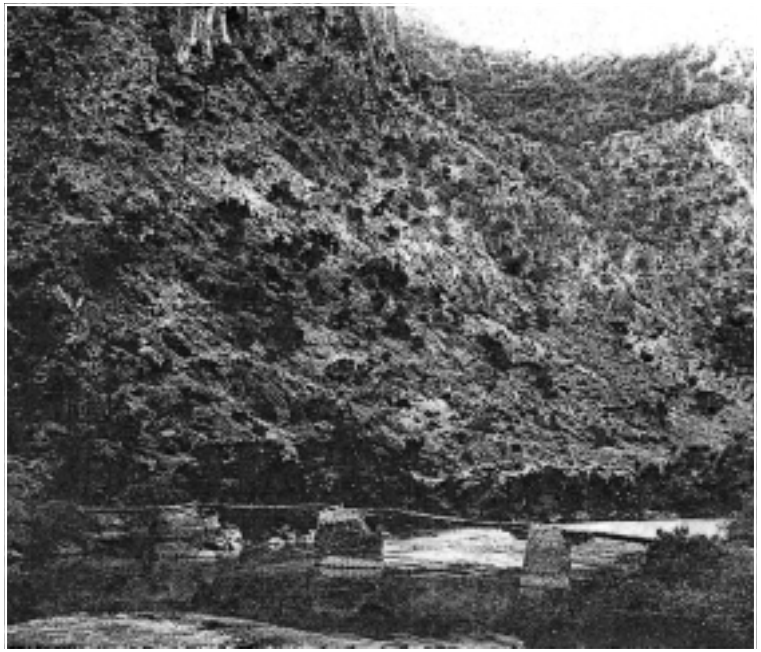

جسر على الزاب الأعلى

الغدير[١٥]. لا يشبه أهاليها سكان القرية السابقة.وينهض رجال كثيرون لدى مرورنا بهم لكي يحيّونا ويتمنّوا لنا سفراً ميمونا. تتكون القرية من ثلاثين بيتا متناثرة في سفح الجبل. سطح البيت المنخفض يستخدم كممر وباحة ومجاز يؤدي الى البيت الأعلى. صخور كثيرة وقمم عالية تهيمن على القرية، بحيث يكفي إنهيار واحد لكي يؤدي بها الى التهلكة.

المجرى يابس. ينفذ داخل الأرض، ثم يظهر على سطح القاع بعد مائة متر في الجهة العليا من القرية، يبدو وكأن أكثر من خمسين عين مياه تنبجس من الأرض، وتجمع المياه لكي توزع على الحقول. نلاحظ في أعلى الصخور بناية صغيرة بيضاء في الصخر، تبدو كأنها كنيسة قرية.

بقدر صعودنا، يفقد الوادي كل أثر للنباتات، بحيث لايبقى سوى حجارة وصخور. فليست سفوح الجبال سوى أرض صخرية عقيمة، لكننا نشاهد، لدى منعرج الطريق، وفي البعيد، قرية محاطة بأشجار الجوز والحور الجميلة، هي قرية كُرد، وإسمها (رابات)[١٦]، ذات منظر بهي كسابقتها، نعتزم أن نتوقف فيها الليلة.

يستقبلنا الأهالي إستقبالاً حسنا، والفضل لأصحاب البغال الذين رغم كونهم كُرداً، فهم طيّبون وحسنو التعامل، على العكس من الآخرين، فقد كانوا قساة ومتوحشين[١٧].

يبدو أنهم يعرفون فيها شخصاً، إذ أننا رأينا قادما نحونا لكي يعرض علينا الضيافة، ويقودنا فعلا الى بيته. إنه مسكن من دون أبواب.

نرتّب حاجياتنا كالمعتاد. الليلة رائعة. السكّان طيبون كثيراً. أحدهم يمسك لنا الشمعة التي تحترق بين أصابعه. لقد قدم جميع أصدقاء مضيفنا لرؤيتنا، وجلسوا على شكل حلقة حولنا، مدخنين القليون، وكانوا يتطلعون إلينا بإندهاش ونحن ننظف أنفسنا أو نسجل ملاحظاتنا، لكنّا ننزعج من الأمر لو لم نكن قد تعوّدنا عليه. إن

(١٥) إنها قرية Bécherat.

(١٦) قرية Rabat.

(١٧) أليس جميع الناس هكذا. أيها السيد بنديه؟ فلم التعميم والتهجّم؟ أليس أولئك طيّبون كُرداً، فلمَ لايكون الكُرد طيبين؟

هدايا بسيطة هي كافية لكي نكسب أفضالا عميمة. أعطي لاحدهم بوصلة لكي تكون قبلته مكة أثناء تأدية الصلاة، وبعض المقصات والأبر للنساء، والسكّرات للأطفال، وأسألهم فيما إذا كان في القرية ثياب وقطع مطرزة تشتغلها النساء شتاء، فيحملون إلينا قطعا نشتريها، يوفان يقدم العشاء ولتغيير وجبة الطعام، أوعز إليه بإعداد بيض مقلي (أومليت)، أضع فيه عرقا من شراب الروم، فيتعجب القوم لدى رؤيتنا نأكل النار، كما يقولون لسيمون.

٢ تشرين الأول (أكتوبر)

بعد المراجعات الإعتيادية، التي لم أتمكن من التهرب منها يوماً واحداً، حاولت أن آخذ صورة لكل النماذج الذين كانوا مجتمعين لمشاهدة رحيلنا، غير أن العملية لم تنجح، مع الأسف، وكان من المستحيل البدء بها مرة ثانية.

غادرنا في الساعة السابعة. وبعد أن سلكنا طريقاً مليئة بالحجارة ووعرا جداً، أخذنا بالإنحدار من علو تل عبر طريق مضن. في أعلى المنحدر شجرة زعرور وحيدة، لكنها من حجم كبير، نفعتنا كملجأ للإستراحة بضع دقائق. بمحاذاة الذروة واد، نتركه الى اليمين، وننحدر مباشرة بفضل منحدر أقسى من الصعود، بحيث يتحتم علينا الامساك بزمام خيولنا لمساعدتها وسندها. إذ نصل الوادي، نستريح في ظل صخرة قرب قرية متروكة، لم يبق فيها سوى بيوت حجارة بغير سقوف.

نلقى أمامنا منظراً جديداً. الوادي قفر، وتبدو الصخور التي تكسوه وكأنها بقايا آثار بركانية، إذ ليس مستبعداً أن تكون تحركات هذه الجبال نتيجة حمم بركانية. تقوم الساقية بدوران نتجاوزه بتسلق تل صغير، حتى نلج وادياً أجرد، كله صخور وحجارة. الماء الصافي والعذب لايسقي أية أشنة وغرسة صغيرة. إنه اليبس الأشد تعاسة: وادي جهنم. صخور ضخمة على شكل شلالات، بحيث تشاهد في البعيد شبه جسور حجرية صغيرة، من الصعب القول كيف ومتى ومن أقامها. ثم يغدو الطريق، رويدا رويدا، أشد وعورة، وتقوم البغال بآيات من الإحكام المتقن في السير والقفز على الصخور وكأنها ماعز جبلي. لقد جعلت أحد الأشخاص يحمل جهاز التصوير، إذ كان سيتحطم على ظهر الحيوانات.

إسم الغدير (أنتراد)[١٨]، يكبر بفضل فروع مياه كثيرة، وما يلبث أن يصبح الوادي العقيم خصبا، إذ تبدو أولاً بعض الحشائش، ثم أشجار الحور والجوز. ويصبح الوادي المتعرّج عريضاً، ويتخذّ مظهر فردوس أرضي حقيقي، إذ تبان الأشجار المثمرة والمروج والنباتات والحقول المزدهرة. الجوز يملأ الأرض التي تحت أشجار الجوز، والكروم تتسلق المروج العالية وهي محملّة بأعناب ممتازة، وكان المنظر قد تغيّر تماماً.

نصل الى قرية كردية إسمها (أونديك)[١٩]، حيث يعيش السكان، رغم إختلاف عوائدهم، بتفاهم جيد. الماء محصور ومجمع بعناية، وموزع بفن كبير على البساتين، بحيث أن الغدير ينعدم في مخرج القرية، لأن الأرض قد شربته.

أصحاب البغال يبحثون لنا عن عنب، كما إننا نجمع جوزاً، ونأكل كل ذلك ونحن نواصل المسير. ألحظ رحى صغيرة بدائية تعمل بالماء، وتستخدم لصنع زيت جوز غير رقيق.

عند نهاية القرية مقبرة قبورها من طراز خاص، كأنها أتانين حجرية مبنية الأبواب. إنه طراز خاص بالسريان[٢٠].

نسير مسافة ساعة طويلة، ولايظل الوادي على جماله، رغم إنه لايتخذ الشكل الأجرد السابق. عقيب مائة متر فقط، نلقى أنفسنا ازاء سحر جديد، وكأنها ضربة عصا سحرية جديدة، إذ يظهر فردوس آخر. إنها قرية (توروب)[٢١] الصغيرة، حيث سنطلب المضيف ليلاً.

لدى دخولنا القرية، نمر أمام مجموعة رجال جالسين على شكل حلقة، وهم يدخّنون. شعرهم مظفور، وهو ما يميز السريان، لأن الكُرد حليقو الرأس جميعاً، وقد يحملك الأمر على إعتبار الشباب نساء. لايبدو من مظهرهم إنهم متحمسون

(١٨) Anthrad.

(١٩) Eundick.

(٢٠) لايفرق بنديه كثيراً بين السريان والكلدان والآثوريين، ويرتكب أخطاء بشأن ذلك، بل إنه سيقول (اللغة الأرمنية) وهو يقصد (اللغة الأرامية)، ويريد بذلك (اللغة السريانية) التي يتكلم بها الكلدان والنساطرة (الآثوريون) والسريان الكاثوليك والأرثوذكس أنظر ص٣١ من الرحلة، وأنظر الهامشين ٢٦ و٤٢.

(٢١) Thouroub

لإستقبالنا، غير أن (الملك)[٢٢] الذي نقصده، تدغدغه لاريب الهدية التي سنقدمها له بدل أفضاله الحميدة، أكثر من المكافأة السماوية التي سينالها بسبب محبته، يقدم لنا مكانا في منزل أفضل تحصينا من الذي قضينا فيه ليلتنا الماضية.

إمرأة على ظهر بغل

يأتي الناس كالمعتاد ليجلسوا حلقة حولنا، في حين ننصرف الى تهيئة أمورنا. إنه عيد صغير بالنسبة اليهم. يقومون بإشعال النار في الغرفة لأن الأمسية باردة. تضفي رائحة الطعام كراهية على رائحة السكان. إنها العفونة رغم هواء الغرفة، فهي خالية من شبابيك وأبواب. ويتكاثر الحضور، إذ يهرعون من كل مكان لمشاهدتنا، ونظل حتى الساعة العاشرة تحت غزو الأهالي.

٣ تشرين الأول (أكتوبر)

القرية بأسرها مجتمعة ساعة رحيلنا. البغل الذي أمتطيه يسبب لي إزعاجاً، ولم يبق إلا القليل لكي أقوم أمام الحضور بمشهد يبعث على السخرية. لاشك أن هذا الحيوان يرى وزني مزعجاً، لأني لم أكد أضع رجلي اليسرى في السرج، وأرفع رجلي اليمنى في الهواء فوق الحمل الثقيل، حتى شوهد وقد أقعى على مؤخرته.

ومضيفنا السعيد، لاريب، بالهدية التي قدمناها له، يرافقنا نحو مائة متر وهو ماسك بزمام بغلي، بينما يمسك إبنه بزمام بغل هاملن. وتودعنا العائلة بأسرها،

(٢٢) قال بنديه أن الملك Mélike هو الكاهن، بينما المقصود هو البطريك أو المطران أو الكاهن أو مختار القرية. وهذا دليل على أن القرية في الأصل آثورية مسيحية.

قبور مسيحية في كردستان

فنسلك طريقا رديئاً وسط بستان ساحر، كما في الأمس. السياجات الحجرية التي تحمي الحقول تسبب إزعاجاً كبيراً لأمتعتنا، فإن البغال تندفع نحوها وهي محملّة، فتلحق صدمات قوية بالجدار والأمتعة.

وبعد مسيرة ساعة يختفي أي أثر للنبات، ويجفّ الغدير. وينعدم الطريق، فنقتفي قلب الوادي وسط صخور في أخدود ذي حواجز عمودية وعلو شاهق، بحيث يبدو المسار متعذراً. ونصادف جهة اليمين ساقية من سواقي العزلة، فيها يسيرٌ من الماء. وثمّة قريتان صغيرتان، الواحدة كردية والأخرى سريانية، ترتفعان جنبا الى جنب، وللحصول على مورد زراعي يمكنهما من العيش، ثمّة أرض تسقيها هذه الساقية. القرية الكردية تسمى جيسي، والسريانية بيرج[٢٣]. من الممكن أن تختفي هاتان القريتان يوماً ما، لأنه يكفي سبب بسيط يقطع عنهما الماء لكي تجف النباتات، وتضطر القريتان كلتاهما الى الهجرة. وكم صادفنا في طريقنا من قرى مهجورة.

(٢٣) Berdj, Djessi.

خلال ساعتين نصعد السفح الأيسر حلزونياً، حتى منتصف الجبل، حيث تنبت بعض أشجار البلوط كجميزات، ثم تغدو الأرض عارية. يشبه المنظر ما كنا قد رأيناه قبل وصولنا الى (وان)، فهي الجبال عينها، من دون إنتظام، لكنها هنا أكبر وأكثر وعورة. نشعر وكأننا تائهون، وقد نضيع حقاً في هذه المهالك لو لم يقدنا من ضيعة الى أخرى أهالي القرى أنفسهم.

يتغير المنظر في أعالي القمة، فالأرض أكثر خصوبة، والحشائش والجميزات تبدو، بمسحة أقل داكنة. وليس النزول بأسهل من الصعود، حتى أضطررنا أن نترجلّ عن البغال. نصادف في الأسفل غديراً آخر، إنه (بيلات–سو)[٢٤]. الوقت ظهراً. لذا نتوقّف تحت ظل شجرة بضع دقائق لإراحة الجياد، ولتناول قليل من العنب، فهو الشيء الوحيد الذي قد بقي لنا.

الضفة اليمنى من بيلات–سو، على بعد خمسمائة متر من أسفل المجرى في إتجاه سيرنا، مرج ثريّ وشديد العلو عمودياً. نصادف أطلال جسر قديم قد بقيت منه خمسة أو ستة أقواس. نتساءل كيف أن أعمالاً كهذه قد أهملت بغباء؟ ترى لمن يعزى مثل هذا الأمر؟ والى أية حقبة يعود؟ يقدمون لي مئات الأجوبة على أسئلتي، غير أن إنعدام الكتابات يجعل من المستحيل إستعادة تاريخ البلد.

بعد هنيهات من إستراحة، نرتقي السفح المعاكس لهذا الوادي الجديد. فنصل بعد ساعة من الصعود الى أول بساتين قرية (دهال)[٢٥]، وهي مركز مهم، وفيها قائمقام ومخفر صغير للشرطة. نجتاز القرية بمحاذاة السفح الشرقي على علو يشرف على القمة التي الى يميننا.

عدد البيوت خمسون، وتبدو حقيرة. تبان الأفنية الصغيرة للحيوانات مليئة بالتبن.

نتوقف، بعد لحظات من عبورنا القرية، قرب عين ماء تتقافز فيها الضفادع. وأثناء إهتمامنا بالحيوانات، يمضي يوفان الى القرية ليجد لنا طعاماً.

(٢٤) Belath - Sou

(٢٥) Dhal

القائمقام وقد رآنا، يرسل شخصاً يدعونا للذهاب اليه، أطلب الى سيمون أن يجيب القائمقام بأني لا أحب الأزعاج، فإني مستعجل، بوسعه أن يأتي بنفسه أن شاء ذلك، وأكلفه في الوقت عينه أن يسأله شرطيين آخرين. أن هذا الرجل الطيب لايفهمنا دوماً كما ينبغي. فيقول للقائمقام إنه يكفينا من الآن فصاعدا شرطي واحد.

ورويدا رويدا يأتي جميع أهالي القرية لمشاهدتنا. إنهم لايوحون إليَّ بالثقة. يحومون حول الأمتعة بفضولية بحيث أضطر الى جمعها والإيعاز بحراستها، ثم أعطي إشارة السفر.

يريد السكان أن يبقونا عندهم، إذ يقولون بأن العمادية بعيدة جداً، غير أن سيمون، تلبية لأمري يسترق السمع إليهم دون أن يلحظوا الأمر، ويقول لي إن في نيتهم سرقتنا ونهبنا، وأن لهم من الوسائل ما يجعلهم يخفون كل ما يطيب لهم دون أن نشعر. وأنا في قلق، طالما فريقنا على غير أستعداد بشكل كامل، والسبب في من شاء أن يعرقل ذلك ويشيع الفوضى في أمر التهيؤ للسفر. أخيراً، نغادر القرية في الساعة الثالثة.

الوادي أجرد وصخري لدى تركنا البساتين، ثم تظهر بعض الشجيرات التي تنتج ثمراً بكميات كبيرة، يجتنيها السكان في سلال كبيرة. ويأكلونها. يضيق الأخدود، فننحدر في درب وسط أدغال وعوسج وسنديان ذي حجم صغير. أخيراً، نلقى في الأسفل مياها خضراء صافية، مياه الزاب الكبير، وقد غدا نهراً عظيماً. ضفافه خضراء وبساط مياهه الجميل ينعش بشكل عذب منظر الطبيعة الذي ينعكس فيه. نصل الضفة في الساعة الخامسة. بعد ساعة سيكون الليل دامسا، ولا نعرف أين نجد لنا مأوى. ضفاف النهر ساحرة، أشبه بحديقة حقيقية من الأسفندان والزان والصنوبر والكروم المتسلقة فوق الأشجار.

نسير بمحاذاة النهر نحو كيلومتر تقريباً، ونصل أخيراً الى جسر. على مقربة من الجسر كوخ صغير من أغصان متروكة، أود أن أقضي الليلة فيه، لأن الظلام قد أشتد بحيث لايمكننا بعد مواصلة السير عبر الصخور، إذ بوسعنا أن نتيه، أو أن تتكسر سيقان البغال.

غير أن أدلاّء القافلة يزعمون بإنه ليس من الفطنة التوقف هناك، إذ بوسع القوم أن يهاجمونا، ومن الأوفق العبور الى الضفة الأخرى من النهر، إلا أن الأمر شاق، لأن سطح الجسر ليس سوى حصران متحركة تنقصها أغصان كثيرة، وثمّة شقوق تغور القدم فيها، لذا ترفض البغال العبور بإصرار. ومن ناحية أخرى، فإن النهر عميق جداً، فلا يمكن عبوره على القاع. ويدوم اللغط والنقاش طويلاً. وقد كان الأدلاء يتكلمون الكردية والكلدانية (السورث)[٢٦]، ويوفان يتكلم التركية والكلدانية، وسيمون الذي لايتكلم سوى التركية، يترجم كلامنا ليوفان، وهذا يترجم كلام سيمون لأصحاب البغال. فيتم الإتفاق أخيراً على حمل الأمتعة بالأيدي، ثم عبور البغال في الماء. وفعلا يتم تنزيل الأحمال، ورفع السرج، ووضع الحمولة على الأيدي، وكل ذلك بمشقّة، ثم كان علينا أن نجعل الحيوانات تعبر، فشاء الرجال أن يكونوا في طرف من النهر، بينما نكون نحن في الطرف الآخر. ورغم ثقتي بهم، فإني كنت أفضّل أن أضع كل شيء تحت أمرتي. وبما أنهم كانوا يخشون النهر، بحيث لم يريدوا أن يدخلوه ليلاً، كان عليّ أن أنزع ثيابي، وأن أشدّ حبلا على الحزام، وأبحث عن القاع التي ليس مخاضها عميقاً.

بعد إيجاد القاع المناسب، وربط البغال من ذيولها، الواحد بالآخر، قام رجلان بسحب الحبل المعلّق برأس أول حيوان، وذلك من الضفة الثانية. وكنت قد صعدت فوق الحيوان، بغية اثارته، بينما كان يعمل الأدلاء على إدخال القطيع في الماء بضربات الهراوات.

لقد كان هذا التمرين الليلي من الأعمال الشاقة، ولم تكن الليلة مقمرة، بحيث كنا لانرى إلا قليلاً. أخيراً، أنتهينا من كل شيء في الساعة التاسعة والنصف، وكنا على وشك أن نحطّ الرحال حين لمحت في البعيد ناراً.

أرسلت أحد أدلاء القافلة ليتعرف على الناس المخيّمين قرب تلك النيران. وبعد نحو الساعة، كنت خلالها أسخن ماء للإغتسال، وأتمشى حول البغال وكوم الأمتعة، عاد سائس البغل حاملا خبرا سارا. في الظلام، حملنا البغال وسرنا، فوصلنا بعد

(٢٦) يقصد بنديه باللغة الكلدانية اللغة المحكية لمسيحيي تلك المناطق، وتسمى بـ(السورث) يتكلمها الكلدان والآثوريون في كردستان.

نحو ثلاثة أرباع الساعة لدى أناس طيبين إستضافونا قرب نارهم.

إنهم مزارعون ورعاة صغار، يخيّمون حول محاصيلهم وقطعانهم، ويشعلون نيرانا شديدة لحماية أنفسهم من الخنازير البريّة أولاً، كما من الدببة الكثيرة في هذه الربوع.

البلوط

نسوّي أفرشة المخيّم فوق رحى. يوفان يعدّ الشاي. وأغوص أنا في فراشي محاولا أن أنام، تاركا هاملن ذا الشهية الجيدة يبحث في قدور المطبخ فيما إذا قد بقي شيء يؤكل.

٤ تشرين الأول (أكتوبر)

كنا قد إتّخذنا بالأمس، لحسن الحظ، إحتياطات بأن نكسو أغطيتنا بمعاطف مطاطية، وأن نفتح شمسياتنا فوق رؤوسنا، فقد كان الندى غزيرا جداً، ولولا ذلك لتحوّل كل شيء الى رطوبة، وكأنّ الدنيا قد أمطرت.

قرب النار، كان قرويّونا راقدين دون أن يشعروا بأخطار تلك الليالي الباردة ودون إتخاذ أية إحتياطات، وكان أطفالهم، وبعضهم عراة الرأس، أو عراة الرأس والصدر، يغطّون فوق الأرض بنوم عميق. فلا مدعاة للعجب إذا ما كان بعضهم يتوفّون، إذ بوسع صحة حديدية فقط أن تصمد.

نسأل سيمون أن يحمّلوا الأمتعة حتى نعود أنا وهاملن من الجسر. عدنا في الساعة السابعة، فكان لنا أن نستأنف المسير.

نعبر رافدا مهما من روافد الزاب الكبير، لم أتمكن من التعرف على إسمه، وذلك مخاضةً، ونجتاز منحدر السفح الأيمن عبر غابة صغيرة من البلوط، حجم بلوطاتها كبير بشكل غير إعتيادي[٢٧]، وبكميات كبيرة، تغذي خنازير كثيرة. إذ نلقى آثار العديد من هذه الحيوانات.

(٢٧) أنظر صورة البلوط.

مخيم أكراد

أن تنوّع البلوط لايحصى. فالأوراق والبلوطات ذات ألف شكل. نشاهد فوق أشجار البلوط المنّ الذي يسقط حتى اليوم، كما في أيام العبرانيين[٢٨]. إنه يبدو فوق الأوراق والبلوط كندى (صمغ) القطران، إنما لايعرف فيما إذا كان عرق النبات أم ندى، لأننا نلقاه كذلك فوق الصخور في الصحراء وفي غابات البلوط، بإستثناء أشجار أخرى.

يستغرق قطعنا طريق هذه الغابة ساعتين. تبلغ أعلى شجرة فيها ستة أو سبعة أمتار، ثم تنتهي الأشجار، فنلقى أنفسنا وسط صخور. نصادف العديد من الدراج.

يمتد في أعلى الجبل واد آخر عقيم وقاحل، تنمو فيه حشائش فقيرة ويابسة لا غير. شجرة واحدة عارية تنتصب في السهل، بدلا من أوراق، نلقى في أسفلها أقمشة شعر وصوف قطعان[٢٩].

ثم آخر صعود لنا. نشاهد مرة واحدة، في الطرف الأخر، صحن العمادية الصغير[٣٠]، ثم في البعيد من خلال أخدود عميق علينا إجتيازه وسط جبلين فيهما

(٢٨) راجع سفر الخروج من التوراة، الفصل ١٦، العدد ١٣-٢١.

(٢٩) من الأشجار المقدسة التي يكرمها بعضهم في أماكن ماتزال بعضها معلومة.

(٣٠) هكذا يسمّي بنديه المرتفع المنبسط الواقعة عليه بلدة العمادية، فهو أشبه بالصحن المسطح. ويكتب رحالتنا العمادية: Amadiah

قمم. الطريق المشقوق في الصخر من الطرق الوعرة جداً، وسيمون الذي أراد البقاء على ظهر بغله، سقط وتدحرج وإياه. وتزلق القدمان الخلفيتان للبغل الذي يحمل آلة التصوير في الهاوية، لكنه يتشبث بالطريق، بحذاقة عجيبة، بواسطة القدمين الأماميتين. ويشاهده السواسون فيهرعون إليه، وفي اللحظة التي كان يوشك فيها أن يسقط، يمسكونه من ذيله ويجرونّه الى سطح الطريق السوي.

وأخيراً نصل الى البيوت الأولى من بساتين العمادية، اما المدينة نفسها فتقع فوق صحن مسطح، وعلينا أن ننحدر حتى أسفل الوادي عبر البساتين برمّتها، ثم علينا بالصعود.

أشجار التين، والرمّان، والكروم هي في أكتمال النضوج. وتبدو الرمانة الأولى التي نقطفها ونحن عابرون لذيذة الطعم. أي تغير في درجة الحرارة والمناخ خلال أيام.

إننا الآن في البلد الحار، مع إننا لسنا جنوب جوليرگ إلا بدرجة واحدة، وبدرجة ونصف عن وان.

من العمادية الى الموصل

العمادية. الدخول الى المدينة. القائمقام: السيد زيا. السكان، وإشتغالاتهم. تجوال في المدينة. حديث مع القائمقام. الرحيل عن العمادية. أرادن: عشاء مع الخوري، ترجمة سيمون. نترك وادي گارا. رهشفري. دهوك. سهل الموصل. قرى زراعية. ضفاف دجلة. شرور الأهالي. السقوط والحوادث في الطريق. الوصول الى الموصل. يرفضون إستضافتنا. الى القنصلية الفرنسية.*

تقع العمادية على صحن مسطح إرتفاعه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة متر فوق معدل سطح الوادي. البساتين خلابّة. يترك السكان المدينة للسكن في البساتين، ولايظل فيها سوى التجار واليهود. لقد كانت المدينة في السابق قلعة ذات شأن، كما يمكن أن نحكم عليها من الأطلال[٣١].

* إنه القسم الثالث من الفصل السابع من الرحلة.

(٣١) بحق يقول بنديه أن العمادية كانت ذات شأن، فهي مدينة آشورية قديمة (أمياتي)، ثم عاصمة أمّارة بهدينان الشهيرة، وقلعة مهمة جدا، ورد ذكرها في أخبار الملك الآشوري شمسي-أدد الخامس (٨٢٣- ٨١٠ ق.م)، ثم بنيت القلعة في العصور الإسلامية، وجددت أكثر من مرة.

الصحن كله محصّن، وثلاثة أبواب تتيح الدخول إليها. ندخل نحن من الباب الشرقي، سالكين طريقا مشقوقا في الصخر، قد كان له أن يكون المدخل الوعر بالنسبة للمهاجمين[٣٢]. وثمه رواق ذو قوس وباب كبير حديدي مقفل ومجموعة حراس من الجنود المساكين يقفون في المدخل. والضابط الذي لم يكن يعرف مع من يتعامل، خشية قدوم سلطات مهمة، يقوم أمامنا بإستعراض للسلاح. نطلب أن يقودنا الى الوالي (القائمقام)[٣٣].

فرسان كُرد

ليست المدينة سوى كومة خرائب، يعيش فيها شعب بسيط. وليس قصر الوالي (القائمقام) سوى بناية كبيرة، إنما في حالة مزرية.

نترك سيمون في حراسة القافلة (الكروان)[٣٤]، ونقدم أنفسنا، أنا وهاملن، الى الوالي (القائمقام). نفهم بفرح إنه يتكلم الفرنسية. ويزداد فرحنا إذ نلتقي بالسيد

(٣٢) إنه باب الزيبار، والبابان الآخران باب بهدينان أو باب الموصل، وباب السراي أو الأمّارة، وماتزال بعض آثارها الجميلة شاخصة.

(٣٣) يستعمل بنديه بدون تفريق كبير مصطلح الوالي Gouverneur ومصطلح القائمقام Kaimagan ومعلوم بأن الوالي مسؤول منطقة كبيرة نوعاً ما، بينما يدير القائمقام ناحية صغيرة. وقد كان يحكم العمادية يومذاك قائمقام عثماني يعين بإرادة سنيّة من أستانبول، ويتبع مركزية صارمة، لأن العمادية بعد سقوط أمّارة بهدينان سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م على يد محمد پاشا الصوراني الملقب بميري كوره. وإندحار سعيد پاشا إبن محمد پاشا إبن إسماعيل پاشا سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م للجيوش العثمانية، ومحاصرة العمادية مرة أخرى، في السنة التالية، من قبل والي الموصل العثماني، أجرى عليها أخيراً نظام الحكم العثماني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م. فلا عجب أن تتضرر العمادية كثيراً بسبب هذه الحروب والمنازعات، فتصبح كومة خرائب، كما يلقاها بنديه (أنظر: أنور المائي، الكورد في بهدينان، الموصل ١٨٦٠، ص١٧٢-١٧٧، صديق الدملوجي، أمّارة بهدينان الكردية أو أمّارة العمادية، الموصل ١٩٥٢، ص ٣٩-٤٠)

(٣٤) ترجمنا لفظة Caravan التي يستعملها بنديه، وجميع الرحالة، بكلمة (قافلة).

زيّا الذي كنا قد صادفناه مابين باشكاه وواه. يتذمّر القائمقام من رداءة الطرق ومخاطرها. أظن بأنه قد أرسل الى هاهنا بسبب كارثة ما، وليس له سوى يومين على وصوله، ويتشكّى كثيراً من طباع أهالي البلد، فهم ينظرون إليه بعين شزرة لأنه يتكلم الفرنسية ويرتدي ثياباً أوروپية. يستقبلنا إستقبال شخص مثقف ومهذب، ويضع ذاته تحت تصرفنا، وينصحنا أن نذهب فنسكن في بيت يعود للدومنيكيين[٣٥]، غير مأهول حالياً، إذ سنكون وحدنا، وبحرية أكبر.

إذ نودع القائمقام، نسأل أن يوصلونا الى الدار المذكورة. إنها تقع في الجهة الغربية، على ضفة الصحن المشرف على الهاوية (الروبال).

البيت مشيّد في فسحة فناء مسيجة بحائط. ننزل أحمال البغال، ونرتب الخيم (الجوادر)، ونسكن في غرفة صغيرة واقعة في الطابق الأرضي، ثم نخرج حالا لزيارة المدينة. كأنها قد أصيبت بآلاف إطلاقات القذائف لكي تمسي على هذه الحال. نلقى، بين الآونة والأخرى، كوخا حقيرا يكاد يكون صالحا لمأوى عائلة فقيرة. أهم مهنة الأهالي: الحياكة والغزل. نجتاز سوقا، ويزعجنا جندي شبه مجنون فيؤخرنا ربع ساعة، وسيمون يقوم بالترجمة. يحكي لنا بأن الحمّى تصيبه وهو بحاجة الى كينين[٣٦]. المدينة العليا لايسكنها سوى يهود، فهم يشكلون قسماً كبيراً من السكان، ويعيشون بتآلف مع المسلمين، وتتزوج اليهوديات أحياناً بمسلمين، بينما لايتزوج اليهود نساء مسلمات[٣٧].

الناس قصار القامة وملامح أوجههم معتدلة. أما بالنسبة للنساء، فلم يعط تزاوج

(٣٥) الدومنيكيون آباء مرسلون ينتمون الى الرهبنة المسماة برهبنة الواعظين، مؤسسهم القديس عبد الأحد (دومنيك) في القرن ١٣م. وقد كانوا من أصل فرنسي يومذاك، وسبقهم الى بلادنا إيطاليون، وكانت لهم رسالة في الشمال في بعض الفترات والمناطق، كما في العمادية. جدد رسالتهم فيها الأب لمي سنة ١٨٦٣، وكانت قد أغلقت يوم زار بنديه العمادية.

(٣٦) كان ينظر الى جميع الرحالين الأجانب كأطباء، وقد تأخر الطب في الفترة العثمانية في بلادنا كما هو معلوم. أنظر الهامش ٤٣.

(٣٧) ليس القول الأخير أكيداً. ويستعمل بنديه لفظة (محمديين) بدلاً من (مسلمين). ويتناسى بنديه بأن معظم الأهالي هم في البساتين صيفاً، بينما ليس لليهود بساتين، لذا ظنّ عددهم أكبر مما كان عليه فعلا.

العمادية

الجنس اليهودي والجنس الكردي نتائج جيدة، فهن قصيرات ومزريات. وجههن ليس كريهاً، غير أن جسدهن المستخدم بزواج مبكرّ جداً، لم يتح لهن بلوغ النضوج. فآذى العنصر كله. ونحن لا نلقى شكلاً جميلاً لنساء هنديات أو يهوديات في الجزائر أو في مراكش.

السوق صغيرة جداً، تحميها أغصان تضمن لها نور الشمس. نلمح من بين المارة أشخاصاً سودا. النساء ينظّفن الحنطة أمام أبوابهن، ومن خلال الفتحة المستخدمة في المنازل الضيقة، نرى نساء ينسجن الأقمشة بصناعة بدائية.

ثم نعود الى الجهة الشمالية الغربية من الصحن المسطح، من جهة بيت الوالي. وندخل الى خان قديم متهدّم، كما هي بقية الأماكن. إنه قائم، مثل مسكننا، على حافة الصحن، حيث نجد منظراً جميلاً جداً مطلاً على البساتين والأخدود الذي جئنا منه. تتعارض نضارة البساتين مع المنحدرات القاحلة المكسوة ببعض عوسجات. بوسعنا القول إنه ضلع فهد كبير يتهادى في البعيد.

نقضي الأمسية في إعداد آلة التصوير، بينما يرقد سيمون، تقلقه أحلام مزعجة، أمّا يوفان فأقل تأثرا، فينسى أن يضع ماء في القدر بحيث يغدو اللحم والملفوف ناشفاً، فننام من دون أكل، لكننا ننام بشكل أفضل.

٥ تشرين الأول (أكتوبر)

نقوم بزيارة القائمقام، ونسأله، إن كنا نستطيع بواسطته الحصول على قافلة (كروان)، فيضع حالا رئيس الجندرمة (الشرطة) تحت تصرّفنا. وأثناء ما يهتم هذا بنا، نتحدث الى السيد زيّا. إنه يتذمر بمرارة من عدم شعور رؤسائه بالمسؤولية، وإنه حين سمع مؤخراً بضرائب المناجم وزارها، تحدث عنها الى رئيسه مؤشراً الفائدة التي ستكون للدولة في إستغلالها، إلا أن الجواب كان بأن الأمر لايعنيه، وأن لايتدخل منذ الآن فصاعدا في شؤونه. وهو يثق قليلا جداً في الرجل المكلّف بالبريد مابين العمادية والموصل، بحيث يطلب منا أن نوصل له رسالة أو رسالتين خاصتين الى مكتب الموصل.

لدى خروجنا من لدن الوالي، لاقينا رئيس الجندرمة الذي عرَّفَنا على شخص تركي-عربي، نصف مسلم ونصف يهودي[٣٨]. طلب منا ثلاثة مجيديات ونصف عن الحصان الواحد للذهاب الى الموصل، وهو سعر باهظ، لأن السعر الإعتيادي لم يكن سوى خمسة وثلاثين قرشا، ثم إنه لايريد أن يتخذ الطريق التي قررناها. نخلص الى الإتفاق حول النقطة الأولى، شرط أن يوافقنا على الثانية، ويقدم رئيس الجندرمة نفسه ضماناً لتنفيذ العقد بالنسبة للطرفين. أسلم ليرة تركية من العربون الى الشيخ المسلم، ولكي أشكر الموظف، أعطيه بوصلة صغيرة من فضة مذهّبة كنت أحملها في سلسلة الساعة. كنا قد جلبنا معنا نحو عشرين بوصلة، وحين كنّا نود التعبير عن إعترافنا بالجميل تجاه شخص لانستطيع أن نكرمه بقطعة نقود، ولو أنه كان سيتقبلها، كنا نفكّ السلسلة، وبعد دقائق نضع بدلا منها أخرى لإستخدامها للغرض عينه.

(٣٨) يبالغ بنديه في تشخيص هذا الرجل، وهو يفعل ذلك كثيراً عندما يتحدث عن الأشخاص والعادات.

تنقضي ساعة والبغال لم تصل، ويأتي دليل القافلة ليعلمنا بأن أحد حيواناته مريض، ولايمكننا أن نسافر اليوم. كنت متأكداً إنها أكذوبة. فأجبته: إذا لم تكن الجياد والبغال جاهزة خلال نصف ساعة، فعلى رئيس الجندرمة أن يتدبّر الأمر. فكان عليه أن يستنجد بعمامته البيضاء، لأن خمسين من الضربات المحكمة ستعلّمه كيف يلتزم بكلامه، لذا نراه يأتينا بعد ربع ساعة مع جميع حيواناته.

ساعة الرحيل، يأتيني التركي الشيخ قائلاً إنه لايستطيع أن يتخذ الطريق التي قد إخترناها. مشاهد جديدة، ومناقشات أخرى. أخيراً، بعد نفاذ الصبر، أترجّل عن الحصان وأمسك الرجل من كتفه، وأتوجه به نحو قصر الوالي. فلا يشك الرجل بضربات العصا، لذا يهرع رجاله، وهم يقبّلون قدمي وثيابي، مترجّين بأن لا أعاقب سيدهم.

نجتاز الأحياء الفقيرة التي وصفتها، ونخرج من الباب الغربي. إن هذا الباب غريب جداً. العقد الخارجية هندسية ومزينة بزخرفة عربية (أرابيسك) وأفاع متشابكة(٣٩).

الطريق نصفه محفور في الصخر، والنزول خطر جداً، بحيث كنا بحاجة الى الترجّل على الأرض. إنه درج نصفه متهدّم، مكوّن من صخور ومن حصى مهذّب وصالح للإستعمال بفضل عامل الزمن.

بعد مسيرة عشرين دقيقة، نتمكن من إمتطاء الحيوانات، لأن الطريق الآن سهل، وسط عوسج ورمان وأدغال. وتنتهي البساتين، أمّا المنظر فلا يزال منثوراً بشجيرات. نقتفي المسار الشمالي المتجه جنوباً لواد كبير حيث يصبّ نهير (سرني) المنساب من گارا(٤٠)، ويمضي حتى يصبّ في الزاب الكبير. وبالسير وسط الضفاف، نسيطر على العمق، فننذهل أمام منظر ظلال قمم الأخدود الآخر الذي يشكل سلسلة طويلة تمتد خطّاً مستقيماً حتى يتيه النظر فيها شرقاً وغرباً.

(٣٩) يقصد به باب القلعة أو باب بهدينان أو باب الموصل، وفيه نقوش وإشارات، منها الحية والعقرب وطير يشبه الصقر، ويشرف على الوادي العميق. وتدور حوله وحول البابين الآخرين حكايات شعبية مختلفة.

(٤٠) نهير يسميّه Surné ولعله (صبنا) أما (گاره) فالجبل المعروف في المنطقة، يقابله (متينا).

قصر الإمارة في العمادية

ألتقط صورة شاملة للعمادية من أعلى جبل صغير، ولكي تكون آلة التصوير جاهزة بسهولة، أجعل شرطيّنا الوحيد يحملها على ظهره، وهذا، يرى أطراف الحقيبة صلبة، ينزع بنطلونه ويضعه كمسند مابين الحقيبة والكتفين دون أن يعبأ بخصوصية الزي.

أطراف العمادية هي الآن أكثر هدوءً من ذي قبل، بعد أن كانت الى بضع سنوات موبوءة بقطاع الطرق، بحيث كانت جرائم القتل فيها يومياً. نصادف طوال الطريق رمم حجارة ذات ذكريات غير محمودة، تشير الى موقع حدثت فيه جريمة ما، فقد عثر على رجل ميت في الطريق، فأقيمت في الموضع، بل تدفن بالقاء حجارة عليها. نصادف أيضاً أربعة لصوص مقيدين بأغلال خشبية، يستريحون في الظل، يرافقهم شرذمة مكوّنة من خمسة جنود(٤٠)*. نلاحظ في سفح الجبل مغائر وكهوفا طبيعية ليس فيها ما يسترعي الإهتمام، تستخدم ملاجيء للقراصنة والحيوانات، وأحياناً لمسافري القوافل أثناء الليل.

(٤٠)* إنطباعات رحالتنا، كالعديد من الرحالة، نتيجة مشاهدات سريعة، وملاحظات قد يبديها أشخاص معينون لايعكسون وجه الحقيقة، فلا عجب أن يقع الرحالة في مبالغات وأخطاء ينبغي التنبه إليها وعدم إعتبارها حقائق تاريخية موثوقة.

ونصل أخيراً (أرادن)، وهي قرية للكلدان. نحلّ في البيت الذي يسكنه الخوري (الكاهن)[٤١]. يقوم بضيافة كريمة تجاهنا، ويقدم لنا غرفته الخاصة. لقد كان في مرسيليا، ويعرف بضع كلمات إيطالية، إنما ليس بما فيه الكفاية لكي نتفاهم. يريد بكل الوسائل أن نتقبل منه غرفته. إنها عبارة عن غرفة صغيرة مربعة، أثاثها كله مكوّن من سرير خشبي. ويلحّ لكي نشاركه العشاء. فيحملون إلينا فوق منضدة صغيرة، علوها عشرون سنتمتراً، وأربعة صحون مملوءة رزا ومرقاً من أنواع مختلفة من الدجاج والخروف. نجلس على أسرتّنا التي هي بمثابة الكراسي، فتوضع المنضدة أمامنا، والكاهن أزائنا على كرسي كبير من خشب خشن، وليس للأب سوى ملعقة واحدة، ونحن نأكل في صحوننا، بينما سيمون الجالس بقربنا يأكل بأصابعه (باليد). نجعله في البداية يأكل معنا، غير أن نقص الذوق يجعلنا ننكر عليه ذلك. يختم العشاء بفواكه أعناب وأجّاص ورمان وجوز وفستق، تنمو كلها في قرية أرادن.

سيمون الذي يترجم، يغيّر بشكل وقح ما نريد أن نقوله للخوري. فبعد العشاء، إذ رأينا بأن الأب لايشرب الشاي، سألناه عن السبب، فطلب أن يقدموا له أيضاً، وأخذ يشرب على مضض، فقد قال له سيمون بأننا سوف ننزعج إذا لم يتناوله!

يأمر الخوري، بعد العشاء، أن ينشد ثلاثة أو أربعة أطفال نشيداً أرمنياً[٤٢]. إنها الصلاة من أجل الضيوف. وينسحب الكاهن في الساعة التاسعة، لكي يتركنا نرتاح. لقد أغلقنا الباب، وليس ثمّة شباك، لكي نحمي أنفسنا من الفضوليين، لكننا نسمع كلاما في الخارج، ومع إننا لانفهم الأحاديث، فإننا نتكهن بإنها تدور حول الأوروبيين.

القرية صغيرة وليست بذات شأن. ثلاثون بيتاً تقريباً. الأطفال طيّبون، ومعظمهم

(٤١) قرية أرادن Araden هنا هي السفلى، قرب أينشكي. ويستخدم بنديه كلمة Cur´e وتعني الكاهن أو القس أو خوري رعية في كنيسة ما.

(٤٢) بدلاً من أن يقول اللغة (الأرامية) يقول خطأ (الأرمنية)، والخطأ واضح، فإن أهالي أرادن والمنطقة، من المسيحيين، يتكلمون (السورث)، ولغتهم الطقسية الكنسية هي الكلدانية (الأرامية، السريانية) لا الأرمنية.

شقر. النساء بحال جيدة لولا وضعهن حلقة في الأنف. الرجال طيبون، منصرفون الى أعمال الحقل. ويبدو أنهم يعيشون بذكاء جيد. نادراً ما يتركون قريتهم، بحيث أن العديد منهم لم يذهبوا حتى الى العمادية. يستخرجون من القرية كل ما يصلح لغذائهم وكسوتهم.

٦ تشرين الأول (أكتوبر)

في الساعة السادسة، إذ كنا نقوم بإعداد أمتعتنا، جاءنا الكاهن قبل ذهابه الى القداس، متمنياً لنا سفراً ميموناً، فأعطيناه هدية لفقرائه. وقد أراد أن نترك له قليلاً من الكينين، إلا أن الإحتياطي الذي كان ينفد بسرعة شديدة لدينا، وحاجتنا الكبيرة إليه، جعلنا نرفض[٤٣].

نترك القرية في الساعة السادسة عبر طريق مسيّج بالحسك ،مملوء بالحجارة والحصى. نسير ببطء عبر هضبات وجبال صغيرة، ونجتاز جدولاً يتبع مسير الوادي الكبير، في الوسط منه. ونصعد بجهد المنحدر المقابل، في منتصف الضفة، نلاحظ للمرة الأخيرة صحن العمادية فوق جبال أخرى. الأرض حمراوية، لاتنتج سوى سنديانات صغيرة وفقيرة، تنمو عليها عفصات بعدد كبير وبحجم البلوط.

نصل الساعة العاشرة الى عين ماء قد جرى الإهتمام بها، وذلك بإحاطتها بالحجارة، فغدت مسقى للقطعان. ونعبر الى واد آخر أراضيه أشدّ حمرة. المنحدر الأيمن الذي نسلكه هو الوحيد الذي فيه غابات بلوط. وثمّة أيضاً توت شوكي ثمره أكبر بكثير مما في أوروبا، بحيث تبلغ الثمرة الواحدة بحجم التفاحة، طعمها لذيذ جداً، وقليل اللذوعة. نصادف خيم بدو شبه متوحشين، رجالاً ونساءً وأطفالاً عراة، مثل آدم وحواء، يستحمّون في غدير، وهم منهمكون في أعمالهم دون أن يبدو عليهم أي حرج بوجودنا.

نتوقف أبعد قليلاً من هناك، قرب عين، للغداء. ويغدو الطريق فوراً أكثر

(٤٣) لم يكن العلاج الطبي متوفراً في البلاد عهدذاك، وكان الكينين Quinine يستعمل في حالات الحمى وغيرها من أمراض، لذا كان مرغوباً جداً، وكان الرحالة يعرفون ذلك، فيجلبون معهم كميات للإنتفاع والتوزيع هنا وهناك. راجع الهامش ٣٦.

مطروقاً، إذ قد وصلنا طريق الداوودية، أي المنعطف المهم[٤٤]. نلتقي بقوافل كبيرة مكوّنة من جياد وبغال تزعج حيواناتنا، وتسبب صدمات عنيفة لصناديقنا. نصادف كذلك قطعان ماشية عديدة، أصواف الخرفان طويلة جداً وملساء، وثمّة قبائل رعاة وبدو. تبدو في الطريق آثار عمل جدّي، غير إنها طرق تالفة جداً بسبب إنعدام الصيانة، بحيث كدنا نتيه مرتين وسط الأدغال.

نترك رشفري[٤٥]، لكي نتجّه غرباً. يحيرني هذا الإتجاه، بحيث إني أطلب من سيمون أن يتأكد فيما إذا كان أدلاء القافلة في الطريق الصحيح. كان إدعاؤه إنهم يعرفون الطريق. ومن المستحيل أن تحصل على شيء أكثر من هذا من سواسي البغال[٤٦].

نترك قرية (زاويته)[٤٧] الى جهتنا اليسرى، فأندهش أكثر وأكثر من الإتجاه المستمر نحو الغرب، حتى أفهم مساء، من سيمون، إننا بدلاً من التوّجه نحو القوس ودير الربان هرمزد[٤٨] نسير الى دهوك، وهو غير الإتجاه الذي كنت أود سلوكه. لقد إتّخذ سواسو البغال الإتجاه الذي يناسبهم. آمر وأنا مغضب بأن يتقاضى مسؤولو القافلة تأديباً يتذكرونه دائماً، فقد تصرّفوا ضد إتفاقيتنا، فيدّعي (صاحب القافلة) أن الطريق الآخر غير آمن، ويقدّم لنا مائة سبب سلبي. نقتفي ضفة منحدر شديد الخطورة. ثمّة قطع صخور عديدة منسلخة عن أطراف الوادي ترغمنا على الصعود أو على النزول بإستمرار، فيذكرني هذا طريق بطرق سلكتها في كابيليا[٤٨]*. نمرّ على

(٤٤) قرب (كورى كفانا). والداوودية قرية معروفة قرب بامرني، ويكتبها هكذا: Daoudiyé.

(٤٥) نهير وقرية Rechevré أو ريشور قرب مجمّع كوري كفانا حالياً.

(٤٦) يستعمل بنديه كلمة Katerdjis للدلالة على دليل وأدلاء القوافل، أمّا سائس أو سائق البغال فهو حسبه muletier واللفظة الأولى تركية، بينما الثانية فرنسية. ولايستخدم بنديه لفظة (حكاري) كما يفعل رحالون آخرون.

(٤٧) مصيف زاويته المعروف، ويكتبها: Zaouitha

(٤٨) كان الرحالة يحبون زيارة ألقوش ودير الربان هرمزد للإطلاع على المعالم التأريخية والآثارية هناك. وناحية ألقوش معروفة، تقع على بعد ٤٥ كم من الموصل، ويقع دير الربان هرمزد في لحف الجبل، وهو من القرن السابع الميلادي. يكتبها بنديه: Alkosh, Rabban Hormouz.

(٤٨)* Kabylie لفظة تطلق على هضاب عديدة في الجزائر.

بعد مئات الأمتار ببدوٍ قد أشعلوا النيران إحترازاً من الدببة والفهود. نستشفّ ملامحهم من خلال اللهبات. لقد خيّم الليل، وأجراس بغال الأمتعة وحدها تسمح لي بأن أسير وراءها.

نجتاز وسط وديان ضيّقة، ولدى الخروج منها، نلمح في البعيد بعض النيران. إنها دهوك[٤٩]. نتوّجه الى خان، ودهوك هي على الطريق السالك بين الموصل ووان، عبر تبليس وسعرت. وبما إننا متأخرّون، يفتح لنا صاحب الخان بإستياء. ووسط فناء مملوء بالجياد والحمير، يصعب علينا إنزال حمولة حيواناتنا، وعلينا أن نحترس لئلا يسرق أحد أكياسنا. مرة أخرى نلعن سواسي البغال الذين لم نتمكن من جعلهم يتخذون الطريق التي إخترناها، ويعملون كل شيء لكي نتعرف متأخراً على الإتجاه الخاطئ بعد أن يكون قد أمسى من المستحيل إتخاذ الدرب الصحيح.

سائس بغال

غداً مساء سنصل لدى الدومنيكيين في الموصل[٥٠] حيث سنلقى إستقبالاً ينسينا رداءة الطريق. أمّا الآن، فإننا إتخذنا سكنانا في الطابق الأول، في غرفة نصلها بواسطة شرفة خالية من الدرابزون، وضيقة جداً، وذات فتحات كبيرة بوسع المرء أن يعبر من خلالها. والدرج الصاعد إليها مكوّن من درجات عددها خمس وثلاثون، علوّ كل منها أربعون سنتمتراً. فالصعود إليها بحقائب ضخمة عمل من أعمال الجبابرة.

(٤٩) قرية دهوك يومذاك هي اليوم مركز محافظة الشمال الغربي من العراق. يكتبها رحالتنا هكذا: Dehook

(٥٠) إنهم الآباء المرسلون من رهبنة الأخوة الواعظين المعروفين بالدومنيكيين أو الدومنيكان. وقد كان مقرهم في الموصل منذ عام ١٧٥٠، ثم تمّ إستبدال الدومنيكيين الإيطاليين بفرنسيين عام ١٨٤٠.

٧ تشرين الأول (أكتوبر)

لقد قضينا ليلة مريحة في هذا المأوى الأمين، نوعاً ما. وفي الساعة الرابعة أيقظت جميع رجالي، لان المرحلة حتى الموصل طويلة.

ماتزال الظلمة في الفناء، وبالكاد نميّز جيادنا التي نسرجها نحن بأنفسنا. إننا بحاجة الى ساعتين لإعداد الرحل.

دهوك قرية ذات ستين بيتاً تقريباً، متوسطة الأهمية. الوالي أمير، له تحت أمرته نحو عشرين شرطياً (جندرمة). قلعة قديمة وتالفة جداً تستعمل الآن كمحل سكن له، لكنه قد شرع بتشييد بناء جديد[٥١].

من المفروض أن تكون البلدة حارة جداً، فقد أتخذّ السكان جميع الإحتياطات، إذ وضعوا على سطوح المنازل عرازيل أغصان، وأختاروا السكن فيها. في الساحة، مقابل قصر الخان الرديء، مقهى تركي صغير، مبني كهذه المنازل البدائية للمرتادين. الطقس في هذا الموضع واضح، فإنه مضمون من جهتي الشمال والشرق بجبال عالية، ومعرّض من الجنوب الغربي لرياح جزيرة العرب المحرقة.

خلال بضع دقائق نصبح خارج المدينة. نسير بمحاذاة (نهر) الرشفري. عرضه بحدود أربعة أو خمسة أمتار، وعمقه نحو متر في الوسط، تملأ ضفافة ورديات، والى اليمين سهل فسيح قد فاض فيه الغدير مراراً، تنمو فيه حشائش عالية ما تلبث أن تيبس بفعل الشمس، وثمّة عليقات وأحساك، والى اليسار تل شديد الإستقامة، يتبعه الطريق إننا في وسط ضفافه، والفيضانات المتعاقبة تشرح إختيار هذه الطريق الأشد تعرضا للأخطار، إنما في حمى من المياه[٥٢].

نبلغ بعد ساعة ونصف من المسير رأس هذا الجبل الصغير، وندور حوله، فنلقى أنفسنا في الصحراء. إنه سهل الموصل، الجانب الشمالي الشرقي من سهل شنعار

(٥١) من المحتمل أن يكون قصر أمير أو أغا دهوك في محلة السوق، حيث مركز الشرطة. أما محلات دهوك القديمة فهي: شيلي، برايتي (النصارى)، الشيخ محمد (الإسلام)، السراي، گري باصي.

(٥٢) أنظر الهامشين ٤٥ و٥١. ولم يترك لنا بنديه صورة لبلدة دهوك كما فعل بالنسبة للعمادية. ويمرّ في دهوك نهران صغيران: ريباري دهوك وريباري شكرو.

الذي يرجع تاريخه الى الطوفان[٥٣]، إذ قيل بأن أولاد نوح قد إستقروا هنا، وأخذت الأرض تمتليء بالسكان من جديد بعد ذاك الخطب الجلل. وهذا السهل ذو وديان متموجة طويلة قليلة الإرتفاع، تأمل أن تكتشف في قمة كل مرتفع سهلاً منبسطاً، إلا إنك ما أن تصل إليها حتى تلقى مرتفعاً آخر يهيمن على الأفق مسافة كيلومترين أو ثلاثة، وفي نهاية كل واد قصير جدول صغير، إذا لم تشربه الرمال فإنه يصبّ في دجلة، الذي يجري غير بعيد عن الطريق، فإننا نلمحه في البعيد.

الشمس محرقة، والطريق ترابي. وتتعاقب الخطوات دوماً بالرتابة عينها. ويبدو الأفق تارة دانيا، وطوراً قصيّاً. لقد بوشر بشقّ طريق ينبغي أن يصل الموصل بدهوك، وجزيرة إبن عمر، وسعرت، وبدليس، وأرضروم، لكنه مايزال من حجارة مسحوقة لاتجري العجلة فيها، وتسير القوافل الى جانبه، فقد أنجز خط واحد، أما البقية فمؤشرة لا غير، ويتبع هذا الطريق خط التلغراف، ويمرّ بتللسقف وتلكيف[٥٤]. نهمل هذا الاتجاه لكي نسلك طريقاً أوسط وأشدّ إستقامة، يقع بين الطريق ودجلة.

البلد خصب وقليل الزراعة[٥٥]. ثمة مساحات كبيرة غير مزروعة، تليها حقول ضخمة قد تمّ حصادها، تختلط بالأولى من بعيد، غير أن السنابل المقتطعة بالمنجل تظل الشاهد الأوحد على زراعتها، فإن المحراث الخشن، وهو عبارة عن مجرفة من خشب، لايسوّي الأرض جيداً، بل يترك فيها أثراً دائماً.

نصادف مجموعة من ثلاثة أو أربعة مساكن لمزارعين يعيشون تائهين بدون ظلال في هذا السهل، إذ ليس ثمّة شجرة، ولاتنمو أية نبتة قرب أكواخ الطين هذه. الزروع قد حصدت، وهم يعملون الآن على فصل الحَبّ عن السنبل، ضمن دائرة قطرها ثمانية أو عشرة أمتار، إذ تدور جياد، طيلة النهار، تحت شمس محرقة، وهي مربوطة

(٥٣) أنظر الفصل العاشر من سفر التكوين من التوراة (العهد القديم).

(٥٤) بلدتان معروفتان، الثانية حالياً قضاء، والأولى بلدة كبيرة. يكتبهما بنديه: Tel Ouskof, Tel Keif

(٥٥) النباتات الزراعية والحبوب هي المنتوجات الوحيدة للبلاد (آشور قديماً)، بها ينعم الناس، بحيث يظل صحيحاً ما قاله هيرودوت في الكتاب الأول، الفصل ١٩٣، فهو البلد الأشدّ خصباً من سائر البلدان. ولايحاول الأهالي زراعة الأشجار، فلا نرى أشجار تين ولا كروم. والأرض صالحة لجميع أنواع الحبوب، وقد تحمل أحياناً مائتي ضعف ما يزرع. (الرحالة).

ببعضها، لكي تسحق بحوافرها التبن الملقى تحت أقدامها. يحتفظون بالحبوب في البيوت، أما التبن فيجمع بعد التنقية في كوم عالية وطويلة، تغطّى بملاط مصنوع من التراب والماء أيام الأمطار مخلّفا مستنقعا. وقد تحفر أحياناً آبار تدر مياها غير صالحة. قرب أحد هذه المستنقعات توقّفنا لكي نريح حيواناتنا.

محراث

سوف أذكر حياتي كلها الغداء الذي تناولناه في ذلك اليوم. فقد كانت تجهيزاتها قد نفدت، ولم يبق لنا سوى عظم فخذ بقر مطبوخ منذ أربعة أيام، كان يقتضيه عينا فهد لإكتشاف شريحة اللحم، وكان مغلّفاً بالقرع، وبعض قطع فطر تبان بصعوبة، ولإستكماله بيضتان مسلوقتان من عهد العظم، وقليل من اللبن الناشف، وكشراب ماء المستنقع، لأن البئر كانت يابسة[٥٦]. بعد نحو ساعة، أسرج الجياد، ونبدأ بالرحيل. الحرّ شديد جداً. وتموّجات الأرض الفسيحة تتعاقب. وتنخفض حرارة الشمس بعد الساعة الخامسة. والموصل التي ينبغي أن تبدو من بعيد، لاتبدو بعد للعيان. وأخيراً هضبة أخرى، نسيطر منها على سهل منفسح يتهادى فيه دجلة كالأفعى في البعيد، ونلمح الموصل وسط الأفق تقريباً[٥٧].

أيام كانت نينوى قائمة، تلك العاصمة الكبيرة الزاهرة، كان المكان الذي نحن الآن

(٥٦) فرنسي ولايأكل جيداً... عشرات المرات نلقى رحّالتنا يصف الأكل والأكلات ووجبات الطعام، فالمائدة الفرنسية معروفة بالأناقة والمراسيم الدقيقة، ويبدو أن رحالتنا من محبّي البطون والأكلات.

(٥٧) يكتب بنديه الموصل على الطريقة الفرنسية Mossoul. مركز محافظة نينوى حالياً، ومدينة قديمة وشهيرة. وصفه للطبيعة المحيطة بالمدينة دقيق وجميل، كما عودّنا أن يفعل في سياق الرحلة كلها بشأن الوصف الطبيعي والجغرافي.

جسر القوارب على دجلة

فيه مقراً مؤقتاً لحاكم أراد أن يستريح بعض الوقت من صخب المدينة، إنما دون ان تغيب المدينة عن نظره، كنسر يحرس فرخه من أعلى صخرة قريبة. فإن هذه الهضبة هي حقاً بقايا حجارة ليست من الأرض الطينية التي قد سرنا فيها منذ الصباح، وبعد أول عمل تخريبي تمّ على أيدي البشر، أقامت عوامل الزمن فيها كل أنواع الأطلال.

لقد منحتنا رؤية الهدف المنشود شجاعة كنا بحاجة إليها، لأن التعب كان قد سرى فينا. غير أن حيواناتنا لاتعرف عين الأسباب مثلنا لكي تشعر بالحماس، إنها منهكة وضربات السياط وحدها تحملها على السير.

بما إننا سنصل متأخرين الى الموصل، أُرسل سيمون قدامنا لكي يعلم الدومينكيين بوصولنا، ويبين لهم أوراقنا، ويطلب إليهم أن يتنازلوا ويقبلوا بإستضافتنا، إنها الساعة السابعة، والظلام مخيّم تماماً.

دجلة عريض وعميق، لايمكن عبوره على الأقدام. يتوزع الى آلاف الجداول. ونحتاج الى معبر كبير للوصول الى جسر القوارب الذي يسمح لنا بالدخول الى الموصل.

ضفاف النهر خصبة، بقدر ما بوسعنا أن نحكم عليها ليلاً. وبيوت كثيرة تحاذي الضفاف. نقتفي قناة يسقط فيها أحد جياد الأمتعة. بينما يسهر هاملن على بقية

القافلة، أساعد أنا الرجال لسحب الحصان من الورطة. سواسو البغال يريدون أن يختصروا الطريق، إلا إنهم يتيهون في الخرائب التي لاتحصى، فهي تحيط بنينوى. نلقانا وسط قوافل جمال نائمة، نوقظها فتلاحقنا لعنات الجمّالين، وبصعوبة نتمكن من البقاء منتظمين. نلمح شخصين أو ثلاثة قرب مجموعة بضعة بيوت، فنسألهم عن الطريق، ويخرج أناس من المنازل فيرموننا بوابل من الحجارة، بحيث أننا نتخلص ركضاً، حتى نغوص في عمق الليل. وبفضل إطلاقتي مسدس، يحترسون من إقتفاء أثرنا. لكننا نتيه مرة أخرى، ويسقط أحد جياد الأحمال الذي كان يسير في المقدمة، وعلى قاب قوسين من سائس كان يسير بهدى أنوار الموصل، في حفرة عمقها أربعة أمتار وعرضها سبعة. فيتبعثر الحمل بأسره، وتتكسر الأحزمة، ويتأذى الحيوان، فنضيع أكثر من نصف ساعة لإصلاح الضرر. الحفرة سبب السقوط هي مهد الخوصر الناشف[٥٨]. ننزل الحيوانات الأخرى في الحفرة بكل عناية، ونقتفي آثار المجرى اليابس، حتى نصل جسر الطريق الذي ينبغي يوماً ما أن يصل الخط الذي بوشر به في دهوك، ففي تركيا لايستعجلون[٥٩].

نتبع النقاط التلغرافية، ونعبر فرعاً صغيراً لدجلة، مشياً على الأقدام، فنبلغ أخيراً جسر الموصل. الجياد لاتقوى بعد على الوقوف من شدة التعب.

المدينة يغلّفها الليل. نلقى سيمون بإنتظارنا، فيفتح لنا الأبواب. منظر سيمون غريب. لقد أصابته ضربات الحجارة في القرية الصغيرة التي عوملنا فيها بشكل غير مستحبّ. وقد قدّم نفسه للدومنيكيين، لكنهم، حسبما قال لنا، إستقبلوه بشكل غير جيد: «ثمه خانات في المدينة، فليقض هؤلاء المسافرون فيها»، كان جواب الآباء «وسنرى غداً ماذا بوسعنا أن نعمل لهم».

(٥٨) نهر دجلة أحد الرافدين العظيمين في البلد، وبالفرنسية Le Tigre أما الخوصر الذي يغدو كبيراً في موسم الأمطار وذوبان الثلوج ويجفّ صيفا، فيكتبه بنديه هكذا: Hassertchai

(٥٩) عدة مرات يسجل بنديه ملاحظة كهذه بشأن البلاد وأوضاعها، وينسب التقصير الى الحكومة العثمانية، فهي، -حسبه- متعمدة في إبقاء البلاد متخلّفة. أنظر الفصل ١١ من (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) تأليف لونكريك، ترجمة جعفر الخياط. ومعلوم بأن الرحالة يشخص حالة متدهورة للبلاد، العراق والموصل بالذات، فقد إنتهى حكم ولاة وطنيين أفادوا البلاد، وكان يتولى السلطة يومذاك ولاة عثمانيون لايهمهم كثيراً أمر تطوير المنطقة.

الأسوار والقلعة الرئيسة - الموصل

هل من الممكن أن يصل فرنسيان منهوكي القوى، فيستقبلان هكذا من قبل مرسلين فرنسيين، مع إنهما يقدّمان لهم رسائل توصية من البيت العام للرهبنة، ورسالة من الحكومة غداً، سنطلب شرحاً لهذه الملاقاة الغريبة. أمّا الآن فليس لنا أن ننام في الساحة العامة من الموصل، لذا أقرع أبواب عدة خانات، ولا أحد يريد أن يفتح. إنهم سعيدون وحجتهم الساعة المتأخرة لرفض مأوى لهؤلاء الكلاب[٦٠]. ورغم أن سيمون كان قد سبق وأفادني بغياب القنصل، منذ يومين، فإني أسأل أن يقودوني الى القنصلية. لقد كان علي أن أبدأ من هناك.

بعد ربع ساعة من السير وسط مجاهل طرقات ضيّقة كلها متشابهة، نصل الي القنصلية. ويتردد البواب قليلاً لدى إستقبالنا، لكنني أذكر له أسمي، يتذكر بأن المسيو (السيد) سيوفي ينتظرني[٦١]، وقد تحدّث أكثر من مرة عن وصولي، بل قد

(٦٠) تعبير آخر من تعابير بنديه النابية، وقد قلنا إنه متعجرف، يحمل الأمور على غير محملها، فينسب أي تصرف لايرضيه الى التعصب.

(٦١) نقولا سيوفي M. Sioffi (١٨٢٩-١٩٠١) من دمشق، منح الجنسية الفرنسية عام ١٨٦٦، وعيّن في القنصلية الفرنسية ببغداد سنة ١٨٧٣، وفي حلب سنة ١٨٧٥، ثم في الموصل سنة ١٨٧٨، وأصبح قنصلاً فرنسياً في موقعة الأخير، ثم أحيل على التقاعد فسكن في بعبدا بلبنان. ترك عدة مؤلفات. أنظر الهامش ١٣٣.

وضع جانباً الرسائل التي قد وصلتني، لذا يفتح الباب حالاً، فننزل أحمال الحيوانات، وبما أن الغرف مقفلة، يفرغ مسكنه تاركاً إياه لنا. فننصب بسرعة أسرّة المخيّم. ويحمل إلينا خبزاً، وخمراً، وجبن ماعز. لم تطب لي وجبة أكل أشدّ من هذه.

يعطيني القوّاص[٦٢] رسائلي، فأجد بينها رسالة من أختي الصغيرة تقول لي:

«تشجّع!». وننام سعداء، تحت حماية العلم الفرنسي المنشور على الحائط، فقد بلغنا نهاية هذه الرحلة الطويلة.

الموصل - نينوى - خورسباد*

من ٨ الى ١٥ تشرين الأول

لدى الدومنيكيين. المونسنيورألتماير. الديوان. قنصل أنكلترا. المنارة المسيحية: برج الساعة. الموصل والشرق: تأسيسها. أطراف الموصل: النبي يونس. طرقات الموصل، الأسواق المقاهي، الإسترخاء (الكيف). العربات. المونسنيور (المطران) بهنام بني. الأكلاك. الخشب في الموصل. جسر قرب النهر. المقابر. مدارس الأخوات الراهبات والآباء (الدومنيكيين)، ومطبعتهم. الأسطرنجيلية، السريانية، الكلدانية. الأسوار. تغيرات مجرى دجلة. حبّة (بشور) الموصل. بناء الكلك. زيارة السلطات. إستقبال على الطريقة التركية. السكاير. غداء في القنصلية الإنكليزية. قصة دببة. ضفاف دجلة: بطائح وغدران، درّاج، أسماك، عيون كبريتية. النائحات (المعددات). زيارة أطلال نينوى وخورسباد. تل قوينجق. بوتا. خورسباد، الحفريات. بيوت مزارعين فلاحين. حائط طابوق مرسوم. تلول تخفي العنقاء. مذبح ثلاثي الأرجل. كيف حفظت الأطلال، تأسيس القصور. الغرف، الجدران، السطوح، الأيام. مجمل القصور. سنحاريب وسرجون. الكتابة المسمارية، وأنواع الألفباء المختلفة، وكيف أكتشفت. مسيو سيوفي. مسجد السلطان لؤلؤ. الصابئة. من الموصل الى البحر المتوسط. باليرا (تدمر)، الدير، سنجار، أورفه. باعة السوق. تجهيز الكلك. الرحيل عن الموصل.

فور إستيقاظنا، رجونا القواص أن يسخن لنا ماء، وشرعنا بالإغتسال. لايمكن أن يستطيب ذلك إلا من كان مثلنا قد حرم منه خلال أسبوع كامل. فنحن منذ تسعة وعشرين يوماً ننام بثيابنا، فوق أسرّة مخيّم. أية مفارقة مساء أمس، إذ أننا بعد أن

(٦٢) القواص خادم شرف لوجهاء القوم، وسيشرح بنديه ذلك في الهامش ٨٠

* إنه الفصل الثامن من الرحلة.

منّينا النفس أن نلقى سريراً، وجدنا أنفسنا في أمسّ الحاجة لكي نحتضن مخدّتنا الحقيرة.

وبعد الإغتسال، ذهبنا لدى الدومنيكيين. واحد منهم ينوب عن القنصل لدى غيابه[٦٣]. والبيت على بعد خطوتين. وقد كان المونسنيور ألتماير[٦٤]، رئيس أساقفة خلقيدونية والقاصد على مابين النهرين، على وشك الخروج حين قدمنا أنفسنا. كان يبدو مستعجلاً، وسألنا أن نعذره. وقد وجهنا الى الأب الناظر (الرئيس)، الأب دفال الذي إستقبلنا بكل مجاملة[٦٥].

تحدثنا نصف ساعة، وإستفسرنا عن الإستقبال البارد جداً يوم أمس. كان سيمون اللاهث بسبب الركض الذي قام به بعد وابل الحجارة التي إستقبلته في الموصل، قد وصل لدى الآباء شبه رجل سكران، فأصدر الأوامر وهو يتهدد: «أوروبيان يصلان، أعدّا لهما غرفة، وأمضوا أمامهما». فأصيب الآباء بصدمة، باديء الأمر، إذ إفترضوا أننا قد سلبنا، وأن سيمون قد يحمل رسائل مسروقة. وبما أن الساعة متأخرة ليلاً، طلبوا إليه أن ينسحب. الإستقبال الذي قام به هؤلاء السادة فيما بعد، كان ودّياً، بحيث إننا نسينا ذاك الإنطباع المزعج. ورغم ذلك، فهم مع إعتبارهم سيمون سارقاً أو مجرماً، أما كان عليهم قبل كل شيء أن يوقفوه ويتأكدوا فيما بعد من إفتراضهم؟

(٦٣) هو عادة ناظر الرسالة أي رئيس الاباء الدومنيكيين، وهو في هذه الحالة الأب دفال. أنظر الهامش ٦٥.

(٦٤) Mgr Altmayer هنري ألتماير (١٨٤٤-١٩٣٠)، ولد في بيزانسون، واصبح دومنيكيا سنة ١٨٦٢ وكاهنا سنة ١٨٦٩، وأرسل الى الموصل عام ١٨٧٤ بصفة أمين سر القصادة الرسولية. وبعد وفاة المونسنيور ليون أصبح وكيلا، ثم قاصداً سنة ١٨٨٤، ورئيس أساقفة على اللاتين في بغداد عام ١٨٨٨، حتى إستقال عام ١٩٠٢ وعاش في فرنسا حتى وفاته.

(٦٥) P. Duval بيير دفال (١٨٣٢-١٩٠٤)، ولد في تول، وأصبح دومنيكيا سنة ١٨٥٦ وقصد الموصل بعد سنة بمعية الأب ليجييه، وأدار الرسالة عدة مرات حتى إستلم الناظرية رسمياً بعد موت الأب بيسون عام ١٨٧٢. عاد من فرنسا سنة ١٨٧٣ مصطحباً راهبات التقدمة، وأسس عام ١٨٧٨ معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، ورسالة سنة ١٨٨١، وقلاية سعرت سنة ١٨٨٢، وقلاية جزيرة إبن عمر سنة ١٨٨٥، وأصبح قاصداً رسولياً على سوريا سنة ١٨٩٥ وتوفي في بيروت.

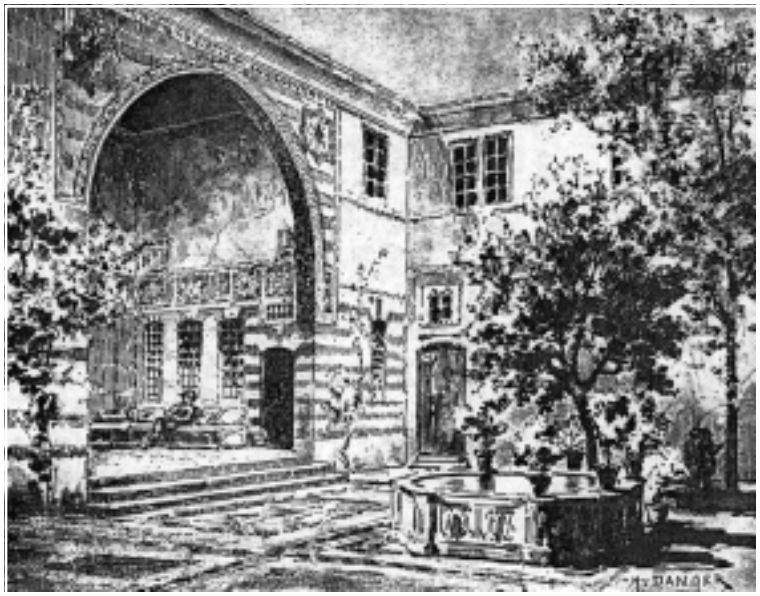

ديوان في مدينة الموصل

يقدّم لنا الآباء المحترمون غرفة كبيرة وجميلة بسريرين. فنقضي الصباح في ترتيب أمورنا، ونفرغ ظهراً، فنتعارف على الغداء. في غرفة الأكل، أنا الى جانب المونسنيور ألتماير، وهاملن قرب الأب الناظر. المونسنيور ألتماير يوشك على السفر الى بغداد. إنه على أهبة السفر، ومهمته ليست بهيّنة، فهو سيقود خمس راهبات لإدارة روضة أطفال، ومعه السكرتيران، الأب هنري والأب دي سيكونزاك وحماية كبيرة[٦٦]. لقد أمر بصنع كلك[٦٧] خاص بذلك، وضمن تجهيزات كبيرة، لأنهم يستغرقون من ثمانية الى عشرة أيام، وأحياناً أحد عشر يوماً لركوب دجلة، ولايجدون أكلاً في الطريق، لأن دجلة يجري في صحراء.

يجتمع هؤلاء السادة، بعد الغداء، في ديوان[٦٨] ليتحدثوا على الطريقة

(٦٦) إنهما الأبوان الدومنيكيان De Segonzac, Henri

(٦٧) الكلك هو الإسم المعطى للقوارب التي تسير منحدرة في نهر دجلة (الرحالة).

(٦٨) ورد هكذا: Divan ويصف بنديه الديوان بشكل دقيق.

الشرقية. ففي هذه الساعة من النهار الحرّ شديد الى درجة إنه لايمكن لأحد أن يعمل أو ينام.

والغرفة المسماة بالديوان مناسبة لذلك بشكل رائع. مثلها موجود في كل البيوت المريحة في الموصل. إنها غرفة كبيرة مربعة، لها سقف على شكل العقدة (القبة)، وتقع في الطابق الأرضي، وهي عالية بعلو طابقين، معرضة الإنتفاح للشمال بغير جدار في الجهة هذه. يجتمعون فيها لتدخين الغليون أو النرجيلة[٦٩] وللحديث والإستقبال.

غليون - شيبوك - نرجيله

لم أستمتع في أي مكان آخر براحة الحياة الشرقية[٧٠]. الغليون الذي لاينبغي أن نخلط بينه وبين (القليان)، يسمى (شيبوك). إنه (السبيل) ذو الأنبوب الطويل المستقيم والصلب، مصنوع عادة من جذع ياسمين، موقده (مكان النار) على الأرض، وقطعة كبيرة من العنبر تنهي الطرف الآخر، تنطبق على الشفتين دون أن تشدّ عليها بالأسنان، كما هي غلايينا الأوروبية. التبغ الذي يدخنونه عذب وشهي، وأكثر عطرا من تبوغنا، إلا إنه خالٍ من نكهة خاصة، فهو من التبغ، تافه وسيء المذاق كالتبغ الذي يباع في باريس تحت إسم التبغ التركي.

لحظة كنا على وشك الخروج. في نحو الساعة الثانية، يأتي دليل القافلة لكي

(٦٩) إن إسم نرجيلة من اللفظة العربية (نرجيل) وتعني الجوز (جوز الهند)، فإن هذه الثمرة المفرغة كانت تعوض سابقاً عن الإناء الذي يستخدمه المدّخنون الآن. وقد كان للسبيل (pipe) آنذاك شكل القليان (الغليون) الفارسي، ولم تكن الساق لينّة ملساء كما هي اليوم (الرحالة).

(٧٠) يستخدم رحالتنا هنا لفظة إيطالية هي farniente تعني اللاعمل، أي عمل لا شيء، لكي يقرّب الى أذهان الأوروبيين ما يقصده الشرقيون بكلمة (الكيف) التي يسجلها كما هي في موضع آخر (أنظر الهامش ٨٥)، ويقصد بذلك الإسترخاء، والإستمتاع، والراحة، والأنس، ويبالغ في وصف الشرقيين بأصحاب «كيف».

يسوّي الحساب. ويطلب سيمون أن يظل بضعة أيام أخرى معنا، فنحتفظ به رغم كونه يسبب لنا بعض المشاكل، إذ بوسعه بعد أن يقدّم لنا بضع خدمات.

نمضي لزيارة قنصل أنكلترا الذي كان زميله في وان قد رجانا أن نسلّمه كلمة. لقد أصابته حمىّ خبيثة يتخلّص منها[٧١]، ولايبدو أنه لقي الإقامة في الموصل مغرية. إنه يحب الصيد كثيراً، وهي أهم وسيلة لهو بالنسبة إليه، لذا غالباً ما يمضي فيقضي ثلاثة أو أربعة أيام وحده، برفقة خادم، في الجبال على بعد مسيرة يوم من الموصل. للإستراحة من القهوة الأبدية، يقدم لنا بيرة إنكليزية، من المفروض أن تكون جيدة وهي في أنكلترا، إلا أن السفر لاشك قد أذاها كثيراً.

رجل يدخن الغليون

عدنا الساعة الرابعة لدى الآباء، وصعدنا الى قبة ناقوس الكنيسة حيث يبدو منظر المدينة بشكل عام. لقد بذلوا جهداً كبيراً في بناء قبة الأجراس هذه. إذ لم يكن للمسلمين أن يروا، من دون ما حسد، إرتفاع منارة مسيحية الى جانب منائر النبي. لكن الأمر تغيّر عندما وضعوا في القبة ساعة ذات أجراس تعلن عن المواقيت[٧٢].

لقد كانت الطريقة الوحيدة التي إستطاع الدومنيكيون بواسطتها أن يجعلوا الناس يرتضون بوقع الأجراس. فإن الأهالي يجدون الساعة مريحة، يستشيرونها مراراً، ويسمّون القبة برج الساعة. والوقت فيها مقسم على الطريقة التركية (العربية): إذ

(٧١) نظنها الملاريا.

(٧٢) يرجع تأريخ برج الساعة أو برج الأجراس الى العام ١٨٨٢. أما تشييد كنيسة اللاتين للآباء الدومنيكيين في محلة الساعة فيسبق ذلك، إذ ترجع البدايات الى سنة ١٨٦٥-١٨٦٦، وتدشينها سنة ١٨٧٢.

خطوط وطرق سكك الحديد

تدق الساعة الأولى عند مغيب الشمس، وينبغي ضبط الساعة كل ثلاثة أو أربعة أيام.

من المؤسف أن تكون الكنيسة واقعة في مكان من المدينة مائل الى الإنخفاض، وليس لها منظر مفتوح إلا من أعلى قبة الأجراس، من هناك فقط بوسعك أن تسيطر على السطوح المستوية للمنازل ذات المسحة الداكنة. كلها ذات علو متساو، ترتفع فوقها بعض المساجد ومنائرها. وإحدى المنارات مائلة، وفي زعم البعض إنها إحدى المنائر التي إنحنت أمام النبي[٧٣].

الموصل، بسبب موقعها، إحدى المدن المهمة جداً في بلاد مابين النهرين. إنها المرحلة العظمى في طريق الغرب والشرق. وهي التي تربط أوروبا بالهند في جميع الطرق المقترحة (الخيالية) لسكك الحديد (أنظر الخارطة)[٧٤]. إنها تقع على الطريق كمركز خدمات مهم، فالموصل واقعة على دجلة، في موضع يغدو فيه النهر صالحاً للملاحة بالنسبة الى القوارب ذات الأهمية التي لا بأس بها، وتصل إليها قوارب

(٧٣) إنها الحدباء، منارة الجامع النوري الكبير، كملت عمارته سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، ويبلغ إرتفاع المنارة ٥١ متراً.

(٧٤) أنظر خارطة سكة الحديد.

أخرى صغيرة قادمة من سعرت وديار بكر. والموصل هي المركز الذي تلتقي فيه كل القوافل الوافدة من الشمال والغرب والشرق، ومنها تحمل حمولتها الى بغداد عبر النهر، حيث تنقلها قوارب تجارية الى أوروپا.

المدينة مأهولة بنحو أربعين ألف نسمة. ليست من تأسيس قديم، جداً إذ أنها إكتسبت أهميتها منذ العهد الإسلامي، بفضل تجارتها النشطة أولاً، ثم بفضل صناعة الأقمشة البديعة[٧٥]. أما اليوم فشهرتها تأريخية فحسب، بيد أن موقعها الجغرافي قد يجعلها تحيا يوماً.

أزاء الموصل، على الضفة الأخرى من دجلة، يقع تل قوينجق حيث نينوى القديمة، وكان موقعها قد أختير بشكل عجيب، كعاصمة للإمبراطورية الآشورية، ومركز كبير للسكان، لأنها على مقربة من الجبال، بوسعها أن تستمد منها ما ينقصها من السهل، وتسيطر بسهولة على مساحات البلد المستوية لبلاد مابين النهرين. ولا ريب أن النهر، كسائر أنهار البلد، لم يكن له حجم مياه أكبر، ولم يستخدم لمواصلات أكثر أهمية مما هو عليه اليوم[٧٦].

والى جانب تل قوينجق، الذي سآتي على ذكره بعد قليل، توجد قرية النبي يونس الواقعة على هضبة صغيرة. وفي الجامع، كما يقال، رفات النبي يونس والتينة التي بكى عليها[٧٧]. والتل الذي عليه بنيت القرية يضم، على حد قول بوتا وپلاس

(٧٥) الموزلين أو بالأحرى (الموصلين) من الموصل، قماش بل نسيج مشهور، يقول بنديه بشأنه: يزعمون بأن الموصل هي التي أعطت إسم القماش الذي نصنعه بأسم moussoline وإنه قد أستورد من الشرق. والأمر صحيح، كما يذكر ماركو بولو منذ القرن الثالث عشر الميلادي. (أنظر رحلة ماركو بولو المعروفة بأسم المليون).

(٧٦) معروفة هي أهمية الموصل ومكانتها، وإسمها خير معبّر كطريق مواصلات شديد الأهمية. أما بالنسبة لعدد السكان فقد كان من الصعوبة بمكان التوصل الى إحصائيات دقيقة (أنظر: الحياة في العراق منذ قرن، تأليف بيير دي فوصيل، ترجمة د. أكرم فاضل، القسم الرابع).

(٧٧) يقع النبي يونس على التل المعروف بتل التوبة، تيمّنا بوقوف النبي يونس (يونان) عليه ودعائه الى الله لكي يبعد اللعنة عن القوم، وله قدسية خاصة عند المسلمين. والتل أثري كما ينوّه بنديه مستشهداً ببوتا وبلاس، وقد شيد عليه، في قرون ما قبل الإسلام، دير بإسم دير مار يونان.

اللذين درساه[٧٨]، بقايا سيكون من المثير جداً إبرازها الى حيز الوجود. إنما للقيام بالهدم الضروري لإجراء الحفريات، لابدّ أولاً من التغلّب على التعصب الشعبي والإدارة السيئة لحكومة جاهلة.

يجرّنا الحديث حتى تبلغ ساعة العشاء. لدى جلوسنا على المائدة لا نقوى، أنا وهاملن، عن الأمتناع عن التسّم، فقد أصيب كلانا بالخذلان أمام رؤية عشاء هزيل مكوّن فقط من مخضرات وجبن، غير أن الآباء كانوا ذوي تنبّه لطيف، إذ قدّموا لنا صحن بيض. وبعد العشاء نجتمع في الديوان ثاني، حيث نتحدث هنيهات أخرى حول منضدة فوقها فانوس كبير[٧٩]. خلال نصف ساعة، ينسحب الآباء لإتمام واجباتهم الدينية، بينما نمضي نحن الى غرفتنا، وللمرة الأولى منذ تسعة وعشرين يوماً، نرقد بهناء وسط شراشف سرير حقيقي.

٩ تشرين الأول (أكتوبر)

بدل لذّة الإسترخاء التي كان بوسعنا أن نقضي صباحنا فيها، ننهض باكراً لكتابة بضع رسائل، فإن البريد ينطلق اليوم في الساعة العاشرة، ولايرحل إلا كل ثمانية أيام. ننزل في الساعة العاشرة، والآباء مجتمعون في الديوان، حيث يستقبل المونسنيور زيارات التوديع، فهو سيسافر مساء.

بعد التحدث بضع دقائق، ننطلق، هاملن وأنا، يرافقنا سيمون وبعض القواصين[٨٠] الى القنصلية. لقد إشتد الحر كثيراً في تلك الأزقة الضيّقة الصغيرة.

(٧٨) سيرد ذكر بوتا وبلاس في الهامشين ١٠٥ و١٠٧، وقد برز للعيان ثور مجنح من الحلاّن مقطوع الرأس أثناء عملية ترميم جامع النبي يونس في تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩٨٦.

(٧٩) إناء كبير من الزجاج توضع فيه لمبة (مصباح) أو أي ضياء آخر (الرحالة).

(٨٠) أظن أني قد أعطيت شرحاً لكلمة (قواص) (أنظر الهامش ٦٢ حيث ذكر الرحالة اللفظة دون إعطاء شرح لها فشرحناها. وهو يفيدنا هنا بما سمعه لاشك إبان إقامته في الموصل): إنهم الجنود القائمون بخدمة السلطات والموظفين الأجانب، يسيرون أمامهم لإبعاد الجمهور عنهم وحمله على إحترامهم، إذ يصعب على غريب أن يسير دون أن يصحبه أحد، فالجماهير ستزدحم حوله. وهؤلاء القوّاصون نزيهون ومخلصون عادة، ولايصح إختيارهم من بين المسيحيين، لأنهم قد يلجأون أحياناً الى الضرب وليس لأحد سلطان عليهم (الرحالة). لاريب أن ندرة الزوار والأجانب في البلاد كانت تبعث على الدهشة في نفوس الأهالي.

البيوت متشابهة، داكنة، مشيّدة بالتراب المسحوق والمجفف في الشمس بحيث يعكس الحرارة ويحافظ عليها[٨١] إنها نظيفة نسبياً هذه الطرقات الصغيرة. بعضها مبلّط بألواح من حجر. لكنها متاهة حقيقية، على المرء أن يكون متعوّداً عليها لكي يطوف فيها ويتمكّن من معرفتها.

يمرّ الطريق أحياناً تحت بيت معقود على شكل قنطرة، فنلقى حينذاك بعض الظل والبرودة. وغالباً ما تكون القنطرة واطئة، بحيث يتوّجب على الفارس أن يترجّل عن الفرس لكي يتمكن من العبور. من حين لآخر نصادف حميراً صغيرة تختفي تحت حمولة حزم الحطب أو التبن، فعليك أن تلتصق بالحيطان إذا ما أردت أن تتجنّب التدافع والتخرق.

تنفتح أمامنا ساحة عارية ما تلبث أن تصلها قافلة بحميرها وجيادها وجمالها حاملة الرزم[٨٢]، فيها بغال وهودج مخصص للنساء. إن هذه العربة أشبه بمنبر، فهي صندوق مربع ذو مرايا ست، كالبرلينية القديمة، ولها أبواب ذات مجرّات مثبتة فوق محامل يوضع بينها بغلان يحملانها، الواحد من الأمام والآخر من الخلف. إن طريقة التنقل هذه هي الأكثر ترفاً حسب ما هو معروف في ديار العرب، إذ ينبغي أن يكون ثمة حيوانان آخران للتبديل، لأن الصندوق ثقيل، ويتخذ الجلوس فيه شخصان، والحيوانات التي تستخدم لهذا الغرض لاتقوى عليه أكثر من نصف نهار، لذا فهي مجموعة أربعة حيوانات تمضي بصعوبة بخطى متساوية، وليس ثمة ضمان ضد الصدمات والأذى للسير في طريق غير معبّد وغير مستو. والمحامل التي ليس فيها مرونة، هي مثبتة بشكل مباشر على بردعة الحصان بواسطة سلاسل[٨٣].

ندخل السوق. الدكاكين صغيرة وواطئة، فهي حوانيت صغيرة مكعّبة شبيهة بالخزانات، تحاذي طريقاً قصيفاً ضيقاً، تتوسطه ساقية شديدة الإزعاج في السير، لأن المنحدر يدفعك نحو الوسط بإستمرار، وثمة جذوع وأغصان (حصران) تغطي هذا الممر فتشكل ما يشبه الرواق تتكون تحته ظلال ورطوبة نسبية. ومن وقت الى آخر،

(٨١) إنه الجصّ المعروف في الموصل والمستخدم في معظم البنايات.
(٨٢) نظنها الفسحة المعروفة بباب الطوب وما قبلها، وهي حالياً في قلب مدينة الموصل.
(٨٣) إنها العربات الضخمة، وقد ترك لنا بنديه صورتها.

هودج كبير

حصان أو جمل يخنق الطريق بشكل تام، حتى إنه قد يبدو أكبر مما هو عليه في هذا الحيّز الضيّق.

بعد أن قطعنا بالتتالي: سوق الصفّارين، وحيّ الخفافين، وتجار الأقمشة، والخزافين الفخارين، والصاغة، والقصابين، والأخير فظيع بسبب كثرة الذباب ورائحة اللحم المتفسّخ، إذ يتعفّن بسرعة بسبب الحرارة، بلغنا ساحة أخرى مختلفة عن الأولى كثيراً[٨٤]. أية فوضى وأية حركة فيها. ليست أسواق الهال في باريس في الساعة الخامسة صباحاً بأشدّ حركة منها. إنهم باعة الفواكه، البطيخ، الرقي، والحلويات، يشغلونها ببسطهم، والجماهير تتجوّل وسطها، وحولها المقاهي، وأكواخ خشبية وجصية، حيث الرواد جالسون بثيابهم على مقاعد حصران يدخنون الشيبوك، والنرجيلة، والقليان، ويحتسون القهوة، ويقضون وقتهم (الكيف)[٨٥]. الطابقان الأرضيان (من المقهى) مكتظان، أما العلوي فلا تلقى فيه موضعاً.

جمل وهودج

(٨٤) هذه أسواق كانت معروفة كلها حتى سنوات قليلة خلت (أنظر: تأريخ الموصل لسعيد الديوَجي، ص٥١-٥٢: سوق الشعارين، سوق القتابين، سوق السراجين، سوق البزازين، سوق الطعام، سوق الحشيش، سوق الدواب والخ).
(٨٥) نجهل في أوروبا ما هو (الكيف)، وليس لنا كلمة تؤدي معناه، ولايقوى أوروبي يقصد الشرق على القيام بالكيف إلا متى تعوّد عليه، فهو أكثر من إهمال وكسل، لإنه نسيان تام وارادي=